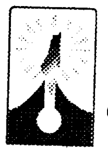
المقاومة والقص في الأدب الفلسطيني

"الانتفاضـــــة نموذجـــــا"

السـيـد نجـم

دراســـة

2006

السـيد نجـم
المقاومة والقص في الأدب
دراسـة
الطبعـة الأولـى : 2006
الغلاف للفنان : ماجد شلا

منشورات الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين


إهـــــــــداء..

إلى

"اتحاد الكتاب الفلسطينيين"

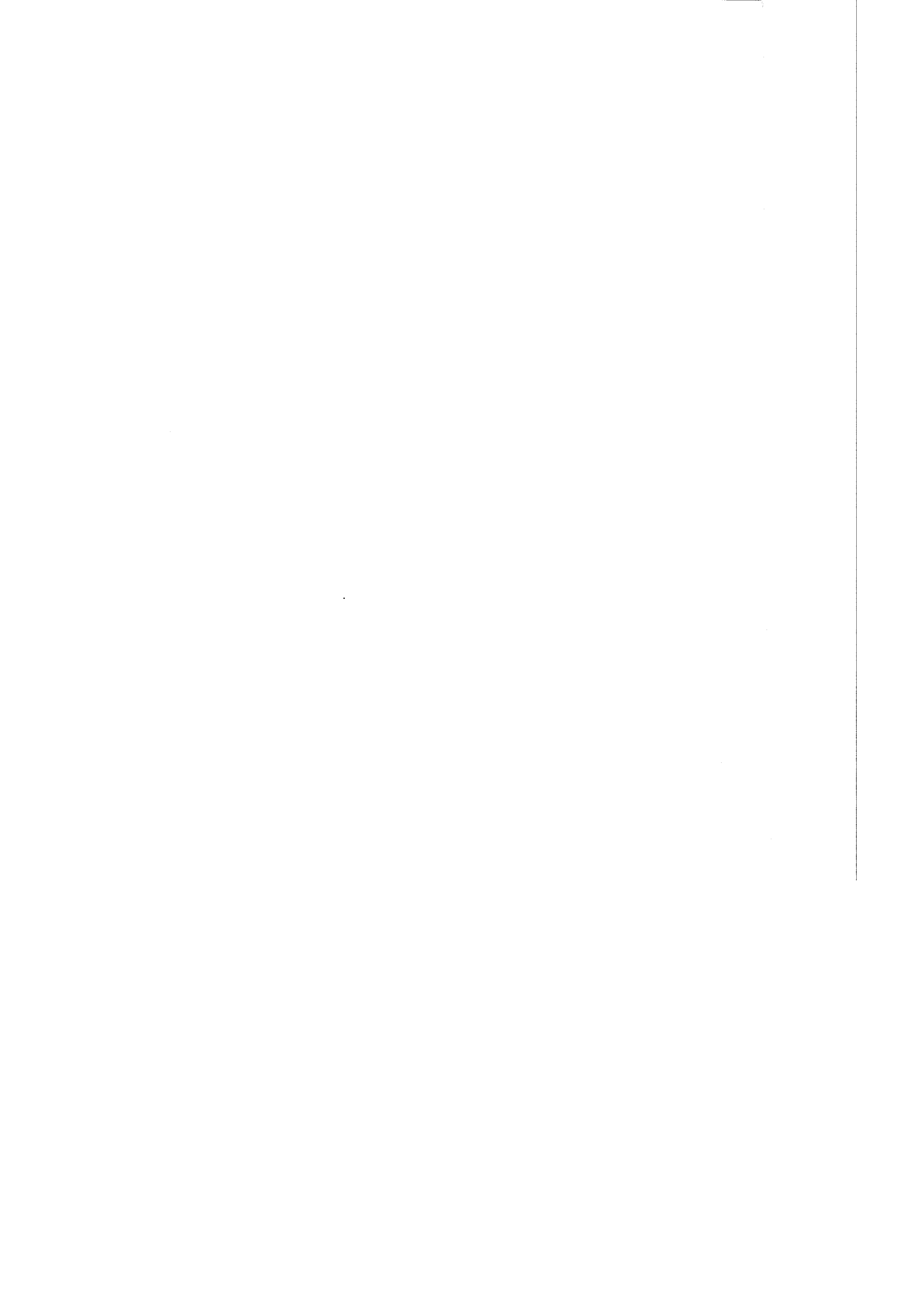
الذي حول مشروع دراسة متواضعة إلى كتاب يطمح

في رصد أسماء مبدعة فلسطينية لم تلق الاهتمام

الذي تستحقه

وإلى

المقاومة..أولاً وأخيراً



مفتتح

كثيرا ما راودتني فكرة هذا الكتاب، وشعرت بشئ من التقـصير نحـو موضوعه. فإذا كان همي الأساسي في مجال الدراسات هو موضـوع "أدب المقاومة" وقد أنجزت منه بعض الكتب، ومازال بعضها الآخر رهن المطابع (منذ سنوات)، إلا أن موضوع "المقاومة الفلسطينية" لم يكـن ضـمن تلـك الكتب..وإن كتبت بعض البحوث حولها هنا أو هناك.

وما يشعرني بالتقصير أن الأدب الفلسطيني تحديدا بين الأدب العربـي.. أكثرهم انشغالا بموضوع "المقاومة"، ليس من بـاب المـصادفة، ولا حتـى الرغبة. إنه الواقع المعاش وقهره، ماذا يكتب الناثر ويشعر الشاعر ويرسـم الفنان، إن لم يكتب الكاتب ويرسم الفنان عن واقعه الحياتي، وواقـع أهلـه وناسه في الوطن.عذري.. أن المتاح من الكتب الإبداعية في مجال القـصة القصيرة والرواية تحديدا، محل الدراسة لفكرة هذا الكتاب.. لم تكن متاحـة بالقدر المناسب. لا أدري إن كان عيب دور النشر الفلسطينية أو العربية التي تنشر للأقلام الفلسطينية، أم عيب مبدعي فلسطين.. إبداعاتكم غير متوفرة..!

قد يجيب مجيب أن كتب "غسان كنفاني"، "إميل حبيبي"، "جبرا إبـراهيم جبرا"، "هارون هاشم رشيد"، "سحر خليفة"..وعدد قليل آخر، من هذه الكتب لتلك الأسماء متوفرة هنا أو هناك.

لكنني لم أكن لأكتب هذا الكتاب لولا هؤلاء الذين عاشوا تجربة "الترانسفير" وآثار اتفاقية "أوسلو"، وحضروا انتفاضة "الحجر"، وانتفاضة "القدس".. وهم أنفسهم يشكون قلة تداول كتاباتهم حتى أن القارىء العربي لم يتعرف علـى الجانب المميز لهذا الجيل وما بعده ممن يعايشون التجربة حتى كتابـة تلـك السطور، وهو ما دفعني لالتقاط قصة قصيرة "جميلة وفنية" لكاتبة شابة لـم

أقرأ عنها أو منها عملا من قبل (وقد عثرت عليه على شبكة الانترنت) وهي القاصة الشابة "جاردينيا الحمران"!

خلال العقدين الماضيين نالت القضية الفلسطينية اهتمـام كـل وسـائل الإعلام، وقلوب العرب والعالم الحر.. وأظن أننا في انتظار مخاض جديـد على الأرض، وحتى لا نتهم بالتقصير أمام أنفسنا أولا، وأمام أدباء فلسطين: حرصت أن تركز الدراسة على الفترة الأخيرة تلك، مع الإشارات والوقفات الهامة التي مهدت لها. فليس تناول الأسماء الشائعة من أدباء فلسطين عمدا، وهدفا في ذاته، لكنها "الانتفاضة" التي فرضت وجودها ودلالاتها، فكان حقـا علينا أن نرصدها، ونرصد من تناولها ومهد لها!!

أما وقد نجحت في العثور على الأعمال محل الدراسة عن طريق شـبكة الانترنت، وبالبريد بالمقابلات الشخصية مع بعض أدباء فلـسطين.. فـإنني أشعر بالتقصير لعدد لم أشر إلى أعمالهم.حقيقة، ما يطمئنني،وعلـى يقـين، أنني سوف أكتب عن أعمالهم يوما،"الانتفاضة" مازالت باقيـة!!وسـيكتبون عنها، وسنسعى لرصدها أمام الأجيال القادمة، وأمام التاريخ..

أليس من أهم وأبرز أدوار "أدب المقاومة" هو الحفاظ على قيم ومبادىء الأمم لذاكرة التاريخ!!

تمهيد..

"الانتفاضة.. ما قبل"

في أسفار التوراة "أول الكتب السماوية" ، إقرار بشريعة الحرب والقتال. بدت على أبشع صور التدمير والتخريب والهلاك والسبي."حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ، ويستعبد إلى يدك، فأضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم ، وكل ما في المدينة ، كل غنيمتها فتغنتمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب....(سفر التثنية ، الإصحاح العشرون ، عدد 10 وما بعده). وفي مواضع أخرى من التوراة.. أن الحرب بأمر الله تعالى ، وكل ما يحدث فيها من صنعه هو.. ربما كانت الحرب عقابا على العبريين من الرب.

"الحرب" إذن وسيلة ، فلا محل لوصفها بالعدل أو بغيره ، ولكونها بالدرجة الأولى ، أمر إلهي. توجد فكرة الحرب في المسيحية على عدة وجوه ، ففي عهودها الأولى كانت صاحبة موقف رافض لفكرة الحرب أصلا: "من ضرب بالسيف سيهلك أو يجن..".وتبدو فكرة المقاومة السلبية لها جذورها في الفهم القديم للحرب في المسيحية (كما تبدت في مقاومة المهاتما غاندي، ونظرة الكاتب تولستوي الشمولية الإنسانية ، وهو ما تبدى في أعماله الروائية).ومع القديس "بولس" بدأت الدعوة لفكرة جديدة لاستعمال "القوة" ، بعد أن زاد عدد المسيحيين، وارتفاع شأن الدين الجديد ، في مواجهة "القوة" الإمبراطورية الضاغطة المستبدة.

ثم جاء القديس "أوغسطين" فقال بمقولة ربانية: "لو أراد الله بأمر خــاص، أن نقتل يصبح قتل الإنسان فضيلة". فهو لم يرفض الحــرب ، شــريطة أن تكون تعبيرا عن المشيئة الإلهية.وكان القديس "توما الاكويني" صاحب المقولة التاريخية "الحرب العادلة" ، ويمكن إبرازها على ثلاثة محددات:

- الحرب.. بأمر من السلطة الدنيوية (الملك).
- عدالة القضية.. الحرب من أجل قضية عادلة.
- على أن يكون مقصد "المحارب" هو "الخير" قبل وأثناء الحرب.

وبقيت الكنيسة تردد في صلوات يوم الأحد لفترة طويلة ، أن هنــاك طرفــا واحدا على حق.والآن تردد الكنيسة أن الحرب يمكن أن تكون عادلة ، وذلك بالإعداد الجيد للحرب حتى دون التأكد من عدالة القضية ، بشرط الرجــوع إلى أصحاب العقل الراجح للمشورة ، وليرجحوا كفة هذه العدالة.

أما الإسلام فقد بدأ مع قوله تعالى: "وأصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا" سورة الطور، آية 48.كذلك: "فاصفح الصفح الجميل" سورة المؤمنين ، آيــة 196. هذا ما كان في الفترة الأولى من الرســالة (المكيــة) ، أمــا فــي الفتــرة الثانية(المدينة) ، فقد تقرر القتال حين يطبق الأعداء: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله.."سورة الحج، آية 40-41. وفي السنة الثانية من الهجرة تقرر الإذن بالحرب: "كتب عليكم القتال ، وهو كره لكم..." سورة البقرة، آية 126.

فرض القتال بشروطه المتعددة التي يمكن حصرها.. الحرب مــن أجــل الدفاع عن العرض والأرض والمال والشرف.. ومن أجل الدعوة إلــى الله. ولا يفوتنا أن لفظ الحرب لا يوجد في الإسلام ، بل "الجهاد" وهى لفظ مــن الجهد والمشقة في ملاقاة العدو ، ولا تعني الاعتداء والعــدوان. كمــا قــنن الإسلام سلوك المجاهد.. الثبات في ملاقاة العدو ، استخدام الحيلة والخــداع،

السماح بالفرار من التهلكة حفاظا على النفس ، والرحمة في الحـرب أثنـاء المقاتلة ، وحتى بعد نصر المسلمين ، مع تنفيذ عقود الذمة وحسن معاملـة الأسرى .

واضح أن الإسلام تعامل مع فكرة الحرب ، على أنها شر لابد منه وكـره للمؤمنين. وإن لم تذكر كلمة "حرب عادلة" ، إلا أنها عادلة في جوهرها (في الإسلام).. من حيث الأسباب ، والممارسات ، وبعد أن تضع أوزارها.وفـي الغالب لم يكن أحد الفلاسفة والمفكرين يزكي الحرب صراحة من رجـالات الفكر الإغريقي ، ومع ذلك أقر أرسطو وأفلاطون بـشرعية الحـرب، بـلا تمجيد لها. وتناولوا فكرة الحرب من حيث "الضرورة" ، وليس مـن جانـب أخلاقي مثل عدالتها أو كونها غير عادلة.حتى كان الداهية السياسي الإيطالي "ميكافيللي" ، وقد قال مقولته الشهيرة ، مفادها أن كل حرب عادلـة منـذ أن تصبح ضرورية. وبه تحولت فكرة "العدالة" من الجانب الأخلاقي القيمـي ، إلى الجانب النفعي . وبذلك يمكن أن تكون الحرب وسـيلة لأهـداف غيـر عادلة، كما تكون غير عادلة في ممارستها، أو ممارسة الجنود. وهو بـذلك وضع البذرة الأولى ، لجعل الحروب من ضـرورات الرأسـمالية ، حيـث تساعد على تطور الصناعات كما قال "أوجست كونت" الذي توجـه بقولـه مؤكدا أن النشاط الإنساني يهدف إلى الحرب أو استغلال الطبيعـة للإنتـاج. وقال هيجل: "الحرب مبتغى الأقوياء". كما قال "نيتشه": "ينبغـي أن تحـب السلام لأنه سبيل لتجديد الحروب". أما "كانت" فقد أدان الحرب ، ولم ينظـر لكونها عادلة أو غير ذلك. كما قدم كتابه الهام:"مشروع سلام دائم".. وهو ما استعانوا به في وضع بنود "عصبة الأمم". ومع ذلك قال: "أن السلام الـدائم محال ولكننا نستطيع أن نحقق هذا الهدف على وجه التقريب".

إن فكرة "الحرب العادلة" بالمعنى الأخلاقي أو المسيحي القـديم–مقولـة "توما الاكويني"– لم تخرج عن حيز جدران الكنيسة ، لتبقى فكـرة الحـرب

متداولة في الفكر الإنساني بين النافع والضار ، أو من حيث أن الحرب وسيلة لتحقيق منفعة ما أم لا.. عند المفكرين. كما بقيت فكرة "الحرب" -بلا توصيف- في الإسلام مكتوبة على المسلمين ، وهي كره لهم.

وبعد حربين عالميتين تقاسمهما العالم ، كانت هناك مساع ومحاولات لدرء أضرار الحرب ونبذها. فكانت اتفاقية "جنيف" التي تسعى لحماية المدنيين والممتلكات وغيرها. كما كانت اتفاقية "لاهاي" التي عالجت العملية القتالية وأنواع الأسلحة المستخدمة وغير ذلك.. أيضا في محاولة لإقلال الأضرار.

ثم تجاوز الإنسان فكرة كون الحرب عادلة أو غير عادلة ، إلى فكرة "ضد الحرب" ، بفضل أفكار رجال القانون الدولي "القانون المضاد للحرب".. وهو ما أعطى لفكرة "حق الاسترداد" مشروعية "المقاتلة-الحرب" لمن وقع عليه غبن وظلم واحتلال. وهو ما أبرز مصطلح "الإرهاب" وتوظيفه بدلالات مختلفة في يد الحكومات التي مازالت تعتقد في جواز الحرب ، سواء كانت عادلة أو غير ذلك.. لا يهم.

شاع مصطلح الإرهاب في العقدين أو الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، وقد بدت ذروة تأثيره ووضوحه بعد عملية اقتحام طائرتين مدنيتين لبرجين شاهقين (ناطحات سحاب) أسقطتهما بمدينة نيويورك الأمريكية في سبتمبر 2001م. يمكن القول الآن أن "الإرهاب" أصبح شكلا من أشكال الحروب في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ، مع بعض الإضافات على أرض الواقع.. حيث تلاحظ أن بعض الدول تمارس الإرهاب وليست جماعات صغيرة، كما أصبح الهدف ، ليس التأثير المؤقت المؤلم.. حتى اقترب من مصطلح "الحرب" الصريحة. كما لم يعد الإرهاب للإعلان عن جماعة ما أو هدف ما أو حتى لتحقيق ألم محدد ومحدود.. اتسع المفهوم الآن: "الإرهاب" هو.. استخدام متعمد للعنف أو التهديد بالعنف ، من قبل جماعة ما أو دولة ما.. من أجل تحقيق هدف/أهداف استراتيجية.. أو حتى حالة من الرعب

والتأثير المعنوي الذي يستتبع بمزيد من العنف: "الإرهاب" هو.. نـوع مـن أنواع العنف المتعمد، تدفعه دوافع سياسية ، موجه نحو أهداف غير حربية، تمارسه جماعات أو عملاء سريون لإحدى الـدول. (وهـو تعريـف وزارة الخارجية الأمريكية – في العقد التسعيني من القرن العشرين) .

"الإرهاب" هو.. القتل العمد المنظم الذي يهدد الأبرياء ويلحق بهـم الأذى، بهدف خلق حالة من الذعر من شأنها أن تعمل على تحقيق غايات سياسـية، لكن المشكلة.. أنه أحيانا ما توصف بعض العمليات الثورية من أجل التحرير والتغيير بصفة العمليات الإرهابية.. كما فعلت وسائل الإعلام الغربـي مـع العمليات الفدائية الفلسطينية. وكذلك اعتبرت حكومة "ريجان"، "الكونترا" في نيكاراجوا مقاتلين من أجل الحرية على العكس من الاتحاد السوفييتي (فـي حينه). وهو الأمر الذي يكشف البعد الأيـديولوجي الكـامن وراء مفـاهيم وتعريفات وأشكال الإرهاب تعريف الباحث الأمريكي "كوفيل" عام 1990م. كانت "الحرب العادلة" مبررا لأعمال الصليبيين، وأصبح "الإرهاب" مبـررا لحروب تعيشها الأمة العربية.. من أجل ماذا وكيف ولمـاذا..؟ هـذه هـي القضية التي نعيشها دون أن ندري أو ندريها ، ولا نستطيع منها فكاكا.



منذ قرن مضى ، انشغلت القريحة العربية بموضوع "الهوية" ، هناك من تحمس إلى الإسلام كهوية ، ومن رجح العربيـة ، وتعـددت الأطروحـات والأفكار. والآن مع بدايات القرن الجديد(الحـادي والعـشرون) ، تجـددت القضية. ليس في الأمر ما يدهش ، هكذا الأمم والشعوب ، مثل الأفراد عليها أن تتوقف وتتأمل أحوالها بين الحين والحين ، إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

وقد دعت.. منذ أن شاع مصطلح "العولمة" و"الكوكبية" أو "القرية الكبيـــرة"، انقسم العالم إلى قسمين.. أولها يدعو متحمسا إلى مفاهيم تبدو جديـــدة وهـــم القلة، وقسم يسعى لاهثا للبحث والتأكد من حسن النوايا ، وهم الكثرة.

يقع الوطن العربي في القسم الآخر ، ولأن "المثقف" هو المحلـــل والحـــالم والمخطط وربما المتنبئ أيضا. أسرعت الأقلام وتسابق الجميع إلى البحـــث في الذات والهوية ، خصوصا "الهوية الثقافية" التي هـــي الإطـــار الحـــافظ والعمود الفقاري الداعم لكل النشاطات والأعمال الحياتية اليوميـــة ، وربمـــا المستقبلية أيضا. وقد أشارت المراجع إلى أن تعريف "الثقافة" مـــن التعـــدد والكثرة بحيث يصعب الوقوف أمام كل منها ، إلا أن تعريـــف البريطـــاني "إدوارد بيرنت" منذ أكثر من القرن ، مازال يحمل في طياته محاور أغلـــب التعريفات والأفكار التي تلته ، فقال:

"الثقافة – أو الحضارة – بمعناها الإثنوجرافي الواسع– هـــي ذلـــك الكـــل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعرف ، وكل المقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عـــضو في مجتمع" ، واضح أنه حدد بعض الأمور الهامة داخل ذاك التعريـــف: أن الثقافة تحمل في طياتها.. الذهني المجرد مثل المعرفة والمعتقدات.. بجانـــب التقييمي مثل الأخلاق والسلوك والتقاليد. وأن "الثقافة" ليست العلوم أو الفنون فقط، بل أوسع من ذلك ، فهي محصلة النشاط البشري لمجموعة البشر فـــي بقعة ما على الأرض. إن "الثقافة" مستقلة عـــن الأفـــراد ، فهـــي تكتـــسب بالممارسة الحياتية والتعلم ، فهي ليست غريزية أو فطرية. كما أن "الثقافـــة" تعبر عن نفسها على شكلين : مادي(فنون وآداب ، بل وحتى الـــسلع) ، ولا مادي(السلوكيات والأفكار والمعتقدات والقيم...الخ).

إلا أن ما سبق ليس هو القضية التي شغلت الجميع حقيقة ، انشغلوا أكثـــر بما يسمى "خصوصية ثقافة ما" وبالتالي خصوصية الثقافة العربيـــة عنـــدنا.

وفي هذا الموضوع اعتبرت عدة عناصر محاور لتحديد الهوية العربية، مثل اللغة ، الدين ، التاريخ ، العادات والتقاليد ، الإرث الشعبي الثقافي.. وغيرها نتخير منها: "اللغة".. حيث أن اللغة العربية لها أهمية خاصة مع العرب على هذه البقعة من الأرض ، وهى بالفعل عامل تماسك بين شعوبها. ولا يتنبأ الكاتب بانفصال اللهجات عن اللغة الأم كما حدث في القارة الأوروبية ، فكانت الإنجليزية ، والفرنسية والإيطالية وغيرها.. كلها عن اللاتينية. أما "الدين".. إذا كانت العربية لغة القرآن ، فإن الإسلام هو الذي حمل العربية إلى مواقع فتوحاته الأولى. والدين هنا لا يلعب دور إتمام العلاقة بين الفرد وربه ، أو هو أسلوب حياة فقط.. بل لعب الدين في الوطن العربي دوره في الربط بين أفراده والناطقين بالعربية. ولا إكراه في الدين، فوجود الطوائف والأديان المختلفة إلى جوار الإسلام ، ليس إلا تعبيرا عن رحابة ذلك الدين وأهله ، كذا تمتع سكان الوطن الكبير من غير المسلمين تعبيرا عن الحرية المتداولة فيما بين الجميع. كما أن الدين الإسلامي يقدم نسقا ثقافيا متميزا تتحدد به: نظرة الإنسان إلى نفسه ، مع ثنائية الروح والجسم ، وأن الروح من أمر الله. وللجسد حرمته.. كما تتحدد نظرة الإنسان إلى الخالق وعلاقته به.. وأيضا نظرة الإنسان إلى الكون ، والكم المعرفي في القرآن عن الكون يستحق التأمل..كما يحدد الإسلام النظرة إلى الآخر من يهود ومسيحيين.



لعل التاريخ هو.. الوعي بالذات الجمعي ، من خلال التعرف على أحداث الأيام وردود أفعال الأجداد حيالها.. هو إذن الأحوال المادية المحققة للكلمة المعنوية/الوطن. ولأنه يضم البعدين الزماني المكاني في التجربة الإنسانية، كما يضم فكرة الفعل ورد الفعل وفكرة الصراع ، بات التاريخ نبعا من منابع

الإلهام للفن والإبداع.. وكل أشكال التعبير عن علاقة الفرد والجماعة مع بعضهم البعض ، في إطار من الأوشاج السببية.

ظلت المعرفة التاريخية هي ملاحقة الملوك والسلاطين والأباطرة والقياصرة ، حتى كانت في القرن التاسع عشر (في أوروبا) الدراسات التاريخية للشعوب في حياتها الاجتماعية والاقتصادية.. بعد الثورة الصناعية هناك. وقد بدت في الوقت نفسه الدراسات التاريخية من خلال المأثورات الشعبية على تنوعها.. وهى التي أفرزت وبرزت فيها روح الشعوب ، بينما بقيت الوثائق الرسمية للتاريخ من كتب وآثار ومخطوطات ، مصادر باهتة.

أكد البعض على أهمية الأعمال الفنية التاريخية ، كما عند "جورج لوكاتش".. لأنها تفي بتوفير "وجهة النظر" التي تحسم القضايا العقائدية والسياسية. وهو في ذلك يؤكد على معنى توظيف العمل الفني التاريخي إلى جانب خصائص "أدب المقاومة" ، الذي هو أدب ترسيخ قواعد الوجود الإنساني الخير ، أدب المدينة الفاضلة بمعنى ما ، أدب الأنا الجمعية في سعيها إلى الحرية لتقوية ذاتها في مواجهة الآخر العدواني.

يخطىء من يعتقد أن التاريخ هو العمل الفني المشاهد أو المقروء، فالمبدع يلتزم بروح التاريخ لتوظيفه ، ولا يصنع تاريخا أو إعادة لصياغته. المؤكد الآن أن "التاريخ" أصبح مادة لصناعة تاريخ الأمم وتشكيل مستقبلها ، والعمل الإبداعي يوثق علاقتنا بالماضي من أجل المستقبل ، وهو بالضبط هدف أدب المقاومة ، وجوهر رؤيته الموضوعية. ويمكن أن نخلص مما سبق بالآتي.. الأعمال الفنية التي تحاكي التاريخ وأحداثه فحسب ، تعد ضعيفة من الجانب الفني.. والأعمال الفنية التي تستفيد من "روح التاريخ" هي التي تعنينا ، والتي تعد جيدة موضوعيا وفنيا من الجانب النقدي.. حيث يعمل "الخيال" ويعيد نسج الحياة والأحداث بفعل الرؤية الفنية وسحر الفن .

يدخل مصطلح "التراث" في إطار فهم الوطن/ التاريخ ، ترجع أهمية التراث إلى عرف توظيف المصطلح ، طالما مازلنا نبحث عن جوهر "الهوية". ولم تتشكل رؤية فكرية حاسمة للفصل بين التاريخي والتراثي. يرى د.زكى نجيب محمود: "لم تكن اللغة في ثقافة العرب "أداة" للثقافة ، بل كانت هي الثقافة نفسها".. ويقول "هربرت ريد": "إنني لعلي أحلم بأن هنالك شيئا اسمه "التراث" ، ولكن قيمته عندي هي في كونه مجموعة من وسائل تقنية يمكن أن نأخذها عن السلف لنستخدمها اليوم ونحن آمنون بالنسبة إلى ما استحدثناه من طرائق جديدة" ، وتتعدد الآراء حول التراث ، وهو ما وضح في أشكال التناول الفني والتقني للأعمال الإبداعية ، كما في جنس الرواية. وقد حدد د.حسام الخطيب جملة ملامح لمفهوم "الحداثة" في الأدب العالمي، وقد سردها وهو بصدد تصنيف المنتج الإبداعي (خصوصا الرواية) من حيث علاقتها بالتراث ، وهي: الصدق الفني في نقل مشاعر المبدع وتصوير تجربته- خاصية الرفض أو وضوح النزعات الوجودية – التركيز على العالم الداخلي وكشف أسرار النفس – الشعور بإشكالية المصير الإنساني والعجز في تفسير القضايا الكبرى – الشعور بالاغتراب الروحي – مع خاصية النسبية والتحرر من القواعد وما على الأديب إلا أن يستعمل طريقته الأدبية ولغته.

في المقابل هناك من الآراء من يرفض توصيف بعض الروايات بالروايات التراثية.. لأن الروايات التي قامت على التراث ليست إلا الشكل الناضج للرواية التاريخية، أو لعلها نسقا من نسقين في الرواية التاريخية: النسق الأول هو أن ينتقل الروائي بكل أدواته للعمل في الزمن الماضي وبعث هذا الماضي من جديد ، كما في أعمال "جمال الغيطاني" و"خيري عبد الجواد".

النسق الثاني في تلك الأعمال التي تبدو وكأن الروائي استلهم عفواً من التاريخ "واقعة" أو "شخصية" وغير ذلك. وهو ما وضح في رواية "حدث أبو هريرة قال" للروائي "محمود المسعدي."

ما يعنينا فيما سبق من اختلافات في الآراء ووجهات النظر فيما هو تراثي أو تاريخي ، أن كليهما يعبر عن تفاعل الإنسان الفرد في جماعته ، وتفاعل الجماعات في ما بينها ، بحيث تتشكل الأحداث والأفعال التي هي إفراز "الوطن" الجامع /المظلة.. وقد أورد د.طه وادي تصنيفا للكتابة التاريخية (في الرواية) ، في مقدمة أوضح فيها أن النصف الأول من القرن العشرين، كان امتدادا فكريا للقرن ال**19** من زاوية "الهوية".. فنشطت الكتابة الإبداعية التاريخية للدفاع عن الحاضر المستباح وصورة الماضي. وهو ما برز في عدد من الملامح:

ـ الاهتمام بالكتابة العلمية للتاريخ.. من حيث هو علم له مباحثه وتفسيراته. وممن كتب فيها "عبد الرحمن الرافعي، محمد شفيق غربال ، محمد عبد الله عنان، سيدة إسماعيل الكاشف.."

ـ إزدهار كتابة فن السيرة .. والسيرة نوع أدبي بين التاريخي والأدبي ، من كتابه "محمد حسين هيكل ، طه حسين ، عبد القادر المازني.."

ـ كتابة الروايات التاريخية.. وقد وضح اتجاهان، الأول استلهم من التاريخ الفرعوني أو المصري القديم، "محمد عوض محمد ، عادل كامل ، محمود تيمور ، نجيب محفوظ".. أما الاتجاه الثاني استلهم من التاريخ العربي الإسلامي ، "إبراهيم رمزي ، محمد فريد أبو حديد ، علي أحمد باكثير ، طه حسين ، محمد سعيد العريان ، عبد الحميد جودة السحار ، علي الجارم".



لقد نالت الرواية التاريخية الاهتمام منذ سنوات بعيدة في محاولة للتنظير والتعريف والفحص..إلا أنها قليلة نسبيا ، حتى أنه يمكن الإشارة إلى بعضها حصرا حتى العقد قبل الأخير من القرن الميلادي الماضي ، وهي: "حول الرواية التاريخية/علي أدهم" ، "الفن القصصي في الأدب العربي الحديث/ محمد حامد شوكت"، "الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث/قاسم عبده قاسم"، و"الرؤية والأداة –نجيب محفوظ/عبد المحسن طه بدر"..وأخيرا "الرواية التاريخية في أدبنا الحديث/د.حلمي القاعود".

تبلورت الآراء حول نشأة الرواية التاريخية ورواجها ، إن تلك الرواية ما كانت لتكتب إلا لتجاوز الهم الشخصي والتعبير عن الهم العام للأمة. وهي محاولة الكتاب للتعبير عن التحدي لبعض المشكلات الآنية التي تعيشها الأمة بالتسلح بذات قوية أصيلة في تاريخنا ، ولمواجهة التحديات التي قد تبدو متشابهة أو قريبة من موضوع الرواية.. فقد كانت الأمة محتلة وتعاني العديد من المشكلات مع "الآخر". ربما يمكن التعبير عن ذلك ، بأن كتابة الرواية التاريخية ورواجها في العقود السابقة ، كان محاولة للدفاع عن النفس. حيث تعرض الروائي إلى موضوعات في التاريخ تماثل الفترة التي يعيشها ويسجل كيف نجح العرب في الماضي لمواجهة هذه الأزمة أو تلك.

قد يبدو الأمر طريفا أن نسرد كل الروايات التاريخية التي كتبت بالعربية حتى العقد الأخير من القرن الماضي.. إلا أنه يمكننا ذلك لعدة أسباب. أن عددها محدود نسبيا ، الملاحظة الأخرى أنه منذ عام 1990م قلت الكتابة الروائية للرواية التاريخية إلى حد الندرة، وربما بدت "معيبة" أن يكتب أحدهم في هذا الشكل الإبداعي الجميل عند البعض.. !إلا أنه لا يجب الانتقال من تلك الوقفة دون أن نذكر ما لكل من الكاتب"جرجي زيدان" و"نجيب الكيلاني" من فضل على تشييد البناء الفسيح للرواية التاريخية. لكل منهما مشروعه الخاص في هذا الجانب، وقد أثرا المكتبة التاريخية الروائية.فقد بدا للبعض

أن "جرجي زيدان" تناول الأحداث التاريخية الإسلامية مسلسلة زمنيا ، ثم صاغها في حبكة قصصية. كما أن "نجيب الكيلاني" تجاوز قرينه بقدر أوفر من تقنيات فن الرواية ، والبعد المكاني حتى أنه أشار إلى البطولات التاريخية للعرب في خارج المساحة المكانية المعروفة ، بسرد الفتوحات الإسلامية في آسيا ، كما في رواية "عذراء جاكرتا" و "ليالي تركستان". ولكل ما سبق اعتبرت الرواية التاريخية في مجملها من أعمال "أدب المقاومة".

الآن نقترب من "الحرب" ، فالتجربة الحربية معقدة ، ومنبه غير تقليدي.. لا هي أحادية ولا هي بسيطة ، ومع ذلك لا تكتسب دلالتها إلا بوجود دوافع داخلية.. مثل دوافع القيم العامة للمجتمعات ، ودوافع الانضباط والخضوع لأوامر الجماعة.عادة درجة استجابة المرء ، إما مباشرة أو غير مباشرة لحدوث اللذة أو الألم ، فتكون جملة الانفعالات التي يعانيها المرء هي التي ستحدد اتجاهاته وسلوكه. وقد يلجأ إلى "الخيال" ، تلك القوة السحرية الساحرة القادرة على إنجاز الفن أو الأدب بأشكاله المختلفة.

ما سبق لا يعني أن أدب الحرب في جوهره وسيلة للخلاص الفردي، ولكن يعني قدرة "الصفوة" من الناس الذين خاضوا التجربة (الحربية) ، وقد امتلكوا الخيال والقدرة على التعبير (بأي وسيلة كانت) ، يحفظون لنا خصوصية تلك التجربة بكل طزاجتها وخصوصيتها.. بحيث تصبح دوما نبراسا هاديا للعامة والخاصة. يأتي "أدب الحرب" في النهاية للتعبير عن هول التجربة ذاتها: يكفي القول بأن النفس البشرية جبلت على حب الحياة ، بينما يخوض الأفراد التجربة الحربية مدفوعين بأمر الجماعة (المجتمع) وبناء على رغبتهم ، وقد يباركون موته. فالتجربة الحربية ليست ذاتية بالكامل ، وتحمل بين طياتها التناقض ، فالمقاتل يسعى لإثبات الوجود وتحقيق الأهداف السامية ، بينما

الواقع المعاش فظ وقاس. لكل ما سبق نحن في حاجة إلى رصد التجربة الحربية وتأملها. فالصراع باق.. والأفراد الموهوبون لتسجيل التجربة يبدعون وهنا فرصتنا كي تقف مؤشرات الزمن عند تلك اللحظات أو الأزمنة الخاصة لتصبح عونا ودعما.فضلا عن أهمية تلك الأعمال في تغطية الجانب النفسي والتربوي الضروري للأجيال الجديدة ، حتى تصمد أمام تحدياتها الآتية يوما ما ، أي الجانب التوثيقي !!وعلى النقيض.. قد يصبح بنو البشر يوما ما قادرين على كبح جماح غوائل أنفسهم ، ويصبح للصراع شكلا بديلا عن "الحروب" ، إذا كانت الأعمال المرصودة عن التجربة الحربية أكثر إنسانية ، وتسعى كي توصل رسالة الكاتب/ المفكر إلى الغرض الحقيقي من وراء رصد تلك التجربة القاسية ، وأنها تجربة إنسانية يجب تأملها.

إن "أدب التجربة الحربية" الحقيقي (الجيد) هو أدب إنساني ، يرفع من قيمة الإنسان ومن شأنه ، ويذكي القيم العليا في النفوس.. إنه أدب الدفاع عن الحياة، والمتأمل قد يجد أن أجود الأعمال الحربية (الإبداعية) هي التي دافعت عن الحياة ، ولم تذك القتل من أجل القتل. وحول التجربة الحربية.. المعنى والدلالة ، تعددت الأقوال ووجهات النظر. قال الناقد الإنجليزي "ستيفن سبندر": "لا شك أن الألم والشر ليسا من الأمور الجديدة ، وإن كانا يزدادن وضوحا في أثناء الحرب ، وربما زاد الألم في الحرب الحديثة".

إن خصوصية أدب الحرب ترجع إلى أنه أدب التعبير عن الأضداد: الموت مقابل الحياة ، رهافة المشاعر مقابل شراسة وفظاظة المقاتلة ، إنه أدب اشتهاء الحياة حتى قال "هيمنجواى" عن تلك التجربة: "إن حياة المحارب مصارعة من أجل الأمعاء المفتوحة". وقال "مارتن فان كريفلد".."الحرب هي الشئ الوحيد الذي يتيح ويقتضي في نفس الوقت إظهار كل ملكات الإنسان وتوظيفها"، وقال "فوكوياما".. "أن انتصار الليبرالية الديمقراطية الغربية لا يدعو للابتهاج.. لأن الزمن المقبل يدعو للملل وهو زمن حزين ، لأن

"الصراع" من أجل إثبات الذات واستعداد المرء للمخاطرة بحياته مـن أجـل هدف مجرد ، والصراع الأيديولوجي العالمي يدعو إلى الجسارة كالإقـدام ، ويثير الخيال والمثالية..."، وقالت باحثة أمريكية في شئون الحرب.." الحرب لا تبدأ مع إعلان اندلاعها ، وإنما تنتهي عند وقف إطلاق النـار.. إذا مـا عرفنا أننا في وضع حرب عرفنا أنه مسموح لنا القتل والنهب والاغتصاب.. إن دخول المرء المعركة وهو على قناعة برفض الحرب سوف يكشف زيف مبرراتها وفشلها.. ومع ذلك تجديد معنى "المشاركة" في المعارك على الرغم من رفضها" ، وقال "هيجل".."تعتبر الرواية مجالا ملائما لوصف الـصراع بين شاعرية القلب ونثرية العلاقات الاجتماعية معلنا في الآن نفسه، وظيفتها الاجتماعية. "وقال باختين: "جنس الرواية يتلازم مع التعددية اللغويـة.. أي تقتضي تعدد وجهات النظر من مواقع اجتماعية مختلفة وهو لا يتم إلا فـي مناخ قسوة الحرية"، وقال فتحي غانم: "التجربة الحربية توازي الأحداث في الرواية الجيدة".وقال السيد نجم: "التجربة الحربية تعبر عـن المفارقـة فـي الحياة ، فالنفس البشرية جبلت على حب الحياة لكن الناس تريد بطلا!".

والآن ربما يصعب أن نقرر أن أدب الحرب انفعالي زاعق ، اللهـم إلا إذا اعتبرنا الأناشيد الحماسية وقت الحروب وطبول الحرب الأفريقية.. غير ذات قيمة.

* * *

التجربة الحربية الفلسطينية والرواية

نشرت الباحثة الكويتية"سحر الهنيدي" رسالة الدكتوراه التي حصلت عليها حول موضوع "الانتداب البريطاني لفلسطين"من إحدى الجامعات البريطانية. وقد أشارت إلى شخصية "هربرت صمويل" أول منتدب سام على فلسطين ، بأنه كان عضوا قياديا في النخبة اليهودية البريطانية ، ومؤمن بفكرة إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

بعد عام واحد من الانتداب وقف أحد اللوردات في مجلس اللوردات ، أعلن أن وعد بلفور مشحون بالديناميت ، ووصف الظلم الذي يتعرض له عرب فلسطين بأنه "ظلم لا سابقة له في التاريخ".. إلا أن المخطط بدأ ولم ينته ، وبعد عام من تولي "صمويل" ثار عرب إحدى المناطق الجبلية بفلسطين (في25 يونيو 1921م) ، فذهب إليهم المندوب السام في حراسة السيارات المسلحة، ليستقبله عرب المنطقة رافعين الأحذية القديمة على عصي مرددين الهتافات المعادية له ولليهود. كما نشر مؤخرا أن أحد المصورين الصحفيين الأجانب اختفى في ظروف غامضة. ربما يعتبر الخبر عاديا لولا أن ذاك الصحفي هو الذي ارتكب الخطأ التاريخي والتقط الصورة الشهيرة ، والتي باتت رمزا للانتفاضة الفلسطينية.. صورة ذلك الصبي فارس عودة النحيف القصير (من ظهره) ثابتا على الأرض ، رافعا يده اليمنى إلى أعلى رافعا الحجر في مواجهة الدبابة المتقدمة نحوه.

يبدو أنه منذ ذاك اليوم البعيد ، عام 1921م لم تسقط الأحذية القديمة ، وإن استبدلت بحجر.. وبدلا من الرجال والشباب ، تولى المهمة الصبية والأطفال! ومع ذلك يقول "د.محمد عبدالله الجعيدي" في تقدمته للببليوجرافي الهام عن الأدب الفلسطيني "مصادر الأدب الفلسطيني الحديث" ، "وللتدليل على الإهمال الذي لاقاه الأدب الفلسطيني ، لأسباب غير موضوعية ، تكفي الإشارة إلى

أنه حتى عام 1967م، لم يعرف على صعيد البحث الجامعي غير أطروحتين جامعيتين. الأولى بعنوان: "حياة الأدب الفلسطيني الحديث من النهضة حتـى النكبة" للباحث "عبد الرحمن ياغي (عن جامعة القاهرة). والثانيـة بعنـوان: "الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين من1917 إلى 1955 للباحث "كامل السوافيري" (عن جامعة القاهرة). مع ذلك فقد لاقت القضية الفلسطينية وأدبها ما تستحقه ، ولا شك أصبحت هي القضية المركزية لكل القضايا الـسياسية في المنطقة ، وربما هي الأصل ولولاها ما كان كل ما جرى ويجري حتـى اليوم في المنطقة.

لقد أطلقت التجربة الحربية عام 1967م بكل أبعادها العسكرية والسياسية.. الشعلة(على الرغم من كل شئ) ، ولعلها نبهت من نالت منه الغفلـة. وبـدأ الأدب الفلسطيني يلقى الاهتمام المستحق منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم. فـي البدء سعى العالم إلى أدباء الأرض المحتلة للتعرف على آدابهم ، أليس الأدب هو المرآة وبحق ، ثم فتحت الجامعات العربية والأجنبية أبوابها لمزيد مـن الدرس.أول مطبعة دخلت فلسطين عام1830م بمعرفة الإرساليات الأجنبية، وأول مطبعة وطنية أحضرها "باسيلا الجدع" إلى حيفا عام 1908م وظهرت بعض المطبوعات الأدبية وشبه الأدبية.. فكانت أول مجلة قصصية شـهرية على يد "بندلي بياس مشحور" عام1924م ، وتعـددت المجـلات التقليديـة والثقافية. وطبعت الكتب وخصوصا كتب الشعر، حتى أن مؤسسة ثقافية مثل "لجنة الثقافة العربية " بالقدس.. نظمت أول معـرض للكتـاب الفلـسطيني عام1946م.

فلما كانت نكبة 1948م ، فُقد أغلب المنجز المطبوع ضمن ما فقدته الثقافـة المحفوظة بين دفتي الكتب ، بعد أن فقد الفلسطيني الأرض والبيـت ، مـاذا عساه أن يحمل معه إلى الخيمة وهو ما عبر عنه الكاتب "عيسى النـاعوري" في كتابه "أدب المهجر".. سواء بالنسبة له شخصيا أو لغيـره مـن الأدبـاء

الفلسطينيين في تلك الفترة.. لا أحد يحمل كتابا. ومع ذلك فقد بدأت بعض المطابع والمؤسسات الثقافية في تبني الأدب الفلسطيني (بعد النكبة) ، إلا أنه لم يكن بالقدر الوافر والواجب الملائم للقضية وضرورة التعبير عنها ، بسبب القهر السياسي والوضع الجديد الذي أصبحت عليه البلاد.

ربما التقسيم المناسب للأدب الفلسطيني ، يلائم القسمة حسب "التجربة الحربية" للشعب الفلسطيني(حسب تقسيم د.مصطفي عبد الغني ، الاتجاه القومي في الرواية): المرحلة الأولى.. الفترة التي تبدأ مع بدايات القرن العشرين وحتى عام النكبة (1948م). المرحلة الثانية.. الفترة من 1948م حتى 1967م. المرحلة الثالثة.. الفترة من 1967م حتى بداية الانتفاضة الأولى1987م. المرحلة الرابعة.. تلك الفترة التي عبرت عن انتفاضة الحجارة ، وانتفاضة القدس. إجمالا أبرزت بعض الدراسات ملامح الإبداع الفلسطيني الحديث على ثلاث مراحل: المرحلة الأولى وقد شهدت ثلاثة اتجاهات: الاتجاه الإحيائي الذي ينتمي إلى ملامح الأدب العربي عموما والانتماء إليه، وبرز جليا في الشعر وليس في الرواية- أما الاتجاه الثاني فهو الاتجاه الرومانسي ، وربما هروبا من الواقع القاسي المعاش ورفضا له، لكن دون أن ينسى أصحابه الوطن ، فكانت الروايات والقصص: "صراخ في ليل طويل/جبرا إبراهيم جبرا"، "وحدي مع الأيام/عبد الحميد ياسين"، "عابرو السبيل/ نجوى قعوار فرح". أما الاتجاه الثالث، وقد تبلورت الأحداث وأنتجت أفكارها وأناسها، فكان الاتجاه الواقعي النقدي. لقد اشتعلت الثورة هنا وهناك، واستشهد الأدباء قبل غيرهم. يرصد هنا أن أول قصيدة كتبت على الأوزان الحرة في فلسطين كتبها "محمد إسعاف النشاشيبي" في أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي وكانت مرثية في الشاعر "أحمد شوقي" ، كما شهدت تلك الفترة أول قصيدة نثرية للشاعر"حسن البحيري" بعنوان "أحلام البحيرة".. حيث كانت فترة فوران وتمرد على الواقع المعاش ، والأحداث الدموية بداية

من "ثورة البراق"، ثم الثلاثاء الحمراء ، وإعدام الشيخ فرحان السعدي، واستشهاد الشيخ عز الدين القسام ، كما أجهض الإضراب العام بكل شراسة وقسوة المستعمر.

كما أن تلك المرحلة السابقة على عام 1948م ، ومع اقتراب التاريخ المشئوم بدت إرهاصات التوجس من "النكبة"، وقد عبر عنها الشعراء أسرع وأوضح كتاب القصة والرواية ومن القصص التي نشرت "البطلة/خليل بيدس"، "الظمأ/ محمود سيف الدين الإيراني"، "أي السبيلين/نجوى قعوار"، و"فلسطين تستغيث/ عيسى العيسى"، ثم رواية "مذكرات دجاجة/اسحق موسى الحسيني".. وتعد الأخيرة هي أول رواية ذات تقنية تتجاوز ما سبقها في كل إنتاج الرواية الفلسطينية وقد نشرت عام 1943م.

أما المرحلة التالية – حتى 1967م – فقد شهدت ميلاد الإذاعة الفلسطينية عام 1936م لأول مرة،ثم إذاعة صوت فلسطين بعد قيام منظمة التحرير الفلسطينية وكانت البرامج الأدبية التي تعنى بأدب الوطن ، ثم كان كتاب "أدب المقاومة" لغسان كنفاني الذي وضع المصطلح على طاولة البحث وفي ذمة التاريخ لأول مرة ، حيث عرض لفكرة "المقاومة" في الأدب الفلسطيني، وقد نشر عام 1967م ثم مزيد ومنقح في طبعة تالية في 1968م.. (كما صدر كتاب لا يقل أهمية في الشعر الفلسطيني بعنوان "ديوان الوطن المحتل" عام 1968م/ ليوسف الخطيب). صحيح أن الخبرة المضافة مع التجربة المعاشة ليس بالضرورة أن تثمر فورا أدبا معبرا وجيدا ، خصوصا في فن الرواية. إلا أنه يمكن الإشارة هنا إلى تلك المرحلة تحديدا كانت للشعر ومنجزاته التي عبرت عن نفسها على مستوى العالم العربي ، والعالم الخارجي ، بعد 1967م ، فكان الشعراء الذين أضافوا إلى إنتاجهم إنتاجا أكثر توهجا، وشعراء ولدوا مع النكبة أو قبلها، من الأسماء الواجب الإشارة إليها:(إبراهيم طوقان ، فدوى طوقان ، عبد الرحيم محمود ، توفيق زياد،

مؤيد إبراهيم ، محمود درويش ، سميح القاسم ، سالم جبران..) أما الرواية فقد صدر منها: "صراخ في ليل طويل/ جبرا إبراهيم جبرا"، "فداء فلسطين/ رجب توفيق الثلاثيني"، "المجموعة 778/ توفيق فياض".. وغيرها.

لم تكن الرواية بثقل وقيمة الشعر فنيا خلال تلك المرحلة. إلا أن تلك المرحلة صدر خلالها العمل الروائي الهام الأول لغسان كنفاني "رجال في الشمس" وهي التي يؤرخ بها لميلاد الرواية الفنية الفلسطينية.

ومع كل ما كان في 1967م خرج الفلسطيني إلى معنى الثورة ، تتأجج المعاني ويعلو النشيد حتى عبرت عن نفسها في انتفاضة 1987م_لعل أوضح ملامح تلك الفترة (التالية لـ1967م) أن كثرت الدراسات العربية وغيرها حول الأدب الفلسطيني ، وبالذات الجانب المقاومي فيه.. مثل دراسة"محمود درويش شاعر الأرض المحتلة/ رجاء النقاش – القاهرة 1969م" و"الحركة الشعرية في الأرض المحتلة/ صالح أبو إصبع- بيروت 1979م ". ويمكن الإشارة إلى أهم الدراسات عموما في الرواية الفلسطينية، منها: (عدد خاص لمجلة الآداب البيروتية /عدد مارس1964م- "في القصة والرواية الفلسطينية"/إبراهيم خليل- جهد خاص لإبراهيم السعافين والأقرب إلى الهدف المنشود في "الرواية في فلسطين في عهد الانتداب" و"نشأت الرواية والمسرحية في فلسطين حتى 1948م" ، و"الرواية في الأردن"- "الأدب والمعركة"/جهد توثيقي" ، "الرواية في الأدب الفلسطيني(1950م-1957م) و"الرواية والحرب"/ بقلم أحمد عطية أبو مطر"- عدد خاص من مجلة أقلام العراقية في فبراير 1975م"، "الاغتراب في الرواية الفلسطينية/ بسام خليل فرنجية"- الأدب الفلسطيني المعاصر في المعركة/ثريا عبد الفتاح ملحس 1970م"، "زمن الاحتلال: قراءة في أدب الأرض المحتلة/خليل سلامة السواحري"، "مراجعات ومتابعات في الرواية والقصة الفلسطينية/ شمس الدين موسى"، "في الأدب الفلسطيني الحديث قبل النكبة وبعدها/ عبد الرحمن

ياغي"، "أدب المقاومة فـــي فلـــسطين المحتلـــة 1948م-1966م/ غـــسان كنفاني(ويجدر الإشارة إلى أهمية هذا الكتاب ، حيث يعد إشارة هامة لمـــيلاد أدب المقاومة كاصطلاح وكحقيقة – دار الآداب بيروت 1966م) "الرواية في الأردن/ فخري صالح"، "نماذج المرأة البطل في الرواية الفلسطينية/ فيحـــاء عبد الهادي"، "أدب الانتفاضة الفلسطينية في الأرض المحتلة ، أدب الحجارة ، العدد الثالث والعشرين 1989م/ مجلـــة الكاتـــب العربـــي"، "أدب المـــرأة الفلسطينية/ كمال فحماوي"، "الشخصية في الرواية الفلـــسطينية المعاصـــرة/ محمد أيوب" ، "نقد الذات في الرواية الفلسطينية/ مصطفي عبد الغني"، "فـــي الرواية الفلسطينية/ نبيه القاسم"، "الأرض والثورة قـــراءات فـــي الروايـــة الفلسطينية/ وليد أبو بكر".. بالإضافة إلى ما ورد فـــي قـــسم "ببليـــوجرافي الدراسات في "مصادر الأدب الفلسطيني الحديث". كما توجـــد العديـــد مـــن الدراسات المفردة حول رواية أو مجموعة روايات أو حول كاتـــب بعينـــه، بالذات "غسان كنفاني" الذي يحتل الصدارة في تلك الدراسات بـــين مجمـــل روائيي فلسطين.. وأيضا "محمود درويش" في الشعر.

والآن يمكن الإشارة إلى عدد غير قليل من الأسماء في الرواية والقـــصة القصيرة والشعر ممن راجت بعد الانتفاضة الأولى والثانية وان كان منهم من أنتج الكثير قبلها ، وقد احتلت موقعها الإبداعي عالية القيمة الفنية، تـــضاف إلى الأسماء التقليدية منها: "عبد الله تايه ، غريب عسقلاني ، زكي العيلـــة ، أحمد يعقوب ، أحمد رفيق عوض ، المتوكل طه ، عزت الغزاوي، جمـــال بنورة ، عبد الناصر صالح ، أكرم النجار ، يحيى الجوجو ، محمد نفـــاع ، محمد وتد.. وغيرهم بالداخل ، وبالخارج أمثال: حسن حميد ، طلعت سقيرق ، إبراهيم نصر الله، سحر خليفة ، حسين خلف... الخ.

الملاحظ أن المنتج الإبداعي السائد بعد نكسة 1967م هو الشعر وله الكلمة الأولى : محمود درويش ، سميح القاسم ، وتوفيق زياد ، بينما بعد الانتفاضة

كانت الكلمة النثرية هي الأعلى؟! كما أشار "محمود قاسم" في كتابه "الأدب العربي المكتوب بالفرنسية" إلى "إبراهيم الصوص" الدبلوماسي الفلسطيني الذي شاء أن يخاطب الفرنسيين بلغتهم وطريقة تفكيرهم ، فكانت روايته "بعيدا عن القدس"، تلك الرواية التي يمكن أن تصنف برواية تجربة التهجير أو الطرد.. تلك التي ترتبط بالحروب. وقد عرض الروائي لتجربة طرد أسرة من بيتها في القدس حيث التشرد عام 1935م. أحب أحد الشباب العرب "نبيل" الفتاة اليهودية الجارة "جابريللا"، ثم تزوجا.. وتمضي الحياة على الرغم من التناقض بين الزوجين بسبب الحب. وأرى في تلك الرواية خصوصية الكتابة بلغة غير العربية، وفي خصوصية التجربة.

إرهاصات المقاومة الفلسطينية بعد النكبة

شهدت المرحلة التالية لنكبة 1948م ، ما يشبه الصدمة ، وفقدان التوازن. وهي نفسها الفترة التي شهدت ميلاد إرهاصات البحث عن الذات والطريق.. إرهاصات المقاومة. ولخصوصية الرواية كجنس أدبي معقد ورحب ، متعدد الشخصيات والآراء والأحوال ، مع تنوع الأزمنة والأمكنة يعتبر التوقف مع بعض أعمالها مؤشرا هاما للاستدلال على تلك المقولة. كما أن القصة القصيرة تضيف ميزة حرية اختيار الكاتب في أنماط شخصياته وتنوع موضوعاته ، مع تمسكه بوجهة نظر ما.

منذ وعد "بلفور" وخلال فترة الاحتلال الإنجليزي التي سلمت "فلسطين" إلى أنياب الصهيونية ، رصد الأدب الفلسطيني القضية ، وكتب الأديب وجهة نظره.. وهو بذلك حلقة ذهبية من حلقات الأدب العربي المعاصر. وقد توالت الدراسات الأكاديمية ، خصوصا بعد نكسة 1967م. ربما نشير إلى بعض ملامح الحياة الثقافية الفلسطينية خلال القرن العشرين ، بعرض لبعض الملامح ، منها : وصول أول مطبعة إلى فلسطين عام 1830م ، وأول مطبعة وطنية افتتحت عام 1908م(حيفا).. وتوالت المطابع بعد ذلك التاريخ. فكانت الصحف والدوريات الوطنية.. ونشطت الحياة الثقافية على شكل ندوات ومعارض وخلافه.. حتى كانت نكبة 1948م.

منذ نكبة 1948م حتى عام 1967م ، خنقت الحياة الثقافية ، وهو ما عبر عنه "د.عبد الرحمن ياغي" في رسالته في الدكتوراه: "حياة الأدب الفلسطيني الحديث من النهضة حتى النكبة" ، "إن ما حل بالناس في هذا الوطن الصغير صرف النفوس عن حفظ تلك المواد الأدبية.." وما كان في نكسة1967م، كان دافعا إلى ضخ الدماء في العروق ، ليس في البلدان التي أصيبت مباشرة (مصر- سوريا – الأردن) ، بل كل البلدان العربية، بما فيهم أصحاب القضية الأم في فلسطين.

سجل الأدب الفلسطيني قضيته (شعر / قصة):

الشعر: الشيخ يوسف النبهاني ، أبو الإقبال سليم يوسف اليعقوبي ، عباس الخماش ، الشيخ أبوالسعود ، علي الريماوي ، محمد إسعاف النشاشيبي ، سليمان التاجي الفاروقي ، إسكندر الخوري ، إبراهيم الدباغ ، عبد الرحيم محمود ، برهان الدين العبوشي ، إبراهيم طوقان ، محمد على الصالح.

في القصة: محمد أحمد التميمي ، خليل السكاكيني ، ميخائيل جرجس ، خليل بيدس ، مي زيادة. والأعمال النثرية الراصدة مثل: "البطلة" خليل بيدس، "الظمأ" محمود سيف الدين الإيراني ، "الأخوات الحزبيات" و"شمعون بوزاجلو" نجاتي صدقي ، و"مذكرات دجاجة" إسحق موسى الحسيني.

ويمكن الإشارة إلى ثلاثة اتجاهات نقدية ، اتسمت بها الأعمال الأدبية عموما والقص خصوصا ، حتى عام النكبة: الاتجاه الاحيائي.. الاتجاه الرومانسي.. الاتجاه الواقعي النقدي. كانت الفترة التالية على عام النكبة، قاسية إلى حد الموات ، وهو ما يجعل الراصد للأدب الفلسطيني يبحث طويلا حتى نهاية الخمسينيات من القرن الماضي ، فتبدأ الإرهاصات المقاومية التي تعبر عن نفسها أدبيا مجددا. ربما لعبت عناصر كثيرة دورا حتى انتبه الفلسطيني إلى وجدانه ، بعد أن ضاقت به الأرض على سعتها!.. ووجود بعض الأدباء المخضرمين (قبل وبعد النكبة) والذين استمروا على الأرض ولم ينتقلوا إلى أي من الدول العربية.. نشأة جيل جديد، ربما ولد قبل النكبة إلا أنه انتبه وترعرع بعدها، فشاهد وعرف الحقيقة القاسية.. ربما الشكل الحزبي ، حيث انتسب عدد غير قليل من الشباب الأدباء والشعراء إلى الحزب الشيوعي ، والذي قدم حماية قانونية ما.. المنتج الأدبي المقاوم لأدباء فلسطين من خارج الأرض المحتلة.. وسائل الإعلام التي نشطت وتقدمت في الدول العربية المجاورة لفلسطين ، ومنها "الإذاعة" خصوصا في مصر وسوريا.

جاء نشر كتاب "أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 1936م- 1948م" في عام 1967م ، وقد نشر مرة ثانية بمزيد من الإضافات بعنوان "الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948 م- 1968م" للكاتب "غسان كنفاني، بمثابة الميلاد لترسيخ مصطلح نقدي جديد، ألا وهو "أدب المقاومة".أما الأدباء المخضرمين لتلك الفترة (التالية بعد النكبة): مؤيد إبراهيم ، يوسف نخلة ، حنا أبوحنا ، توفيق زياد ، حبيب قهوجي ، عيسى اللوباني ، حنا إبراهيم ، عصام عباسي ، محمود سيف الدين الإيراني ، نجاتي صدقي.. ثم أدباء ولدوا قبل النكبة بقليل وأنضجتهم أحوالها: محمود درويش ، سالم جبران ، توفيق زياد ، سميح القاسم ، هاشم رشيد ، ناجى علوش ، سلمى الخضراء ، سميرة عزام ، غسان كنفاني ، على هاشم رشيد ، يوسف جاد الحق ، إلياس أنيس خوري.

جاء الفوج الثالث وقد نضجوا في أواخر الستينيات وربما السبعينيات: نايف سليم ، فوزي الأسمر ، راشد حسين ، توفيق فياض ، نزيه خير ، فاروق مواسي ، حسن حميد.. أما وقد أنضجت التجربة الجميع ، تفجرت الطاقات ، فخرجت الأعمال مفعمة بالفن والتقنيات الحديثة.

"رجال في الشمس".. والسؤال عن المصير؟

صدرت تلك الرواية في الطبعة الأولى عام 1963م. وإن طبعت أكثر من مرة بعد استشهاد الكاتب من جراء وضع قنبلة موقوتة في سيارته في صباح غائم عام 1972م – وهي تعد من أهم روايات المقاومة عموما/ والمقاومة الفلسطينية خصوصا ، على الرغم من بساطة التناول والحكي والمعالجة. فالرواية تتسم بقدر وافر من الحكائية الإنسانية ، والتعامل مع الجانب الإنساني الضعيف في المرء أي مرء..!! ماذا نقول لثلاثتهم وقد رغبوا في البحث عن حياة كريمة ، أفضل حالا مما هم عليه؟.

لكن ماذا نقول والإنسان مقيد بقدره وأهله وناسه ، حتى مع الحلول الفردية التي يظنها هي الخلاص. ترصد حكاية الرواية ثلاثة رجـال "أبـو قـيس"، "أسعد"، "مروان".. بينما "أراح أبو قيس صدره فوق التراب الندي ، فبـدأت الأرض تخفق من تحته: ضربات قلب متعب تطوف في ذرات الرمل مرتجفة ثم تعبر إلى خلاياه.. في كل مرة يرمي بصدره فوق التـراب يحـس ذلـك الوجيب كأنما قلب الأرض ما زال منذ أن استلقى هناك أول مرة يشق طريقا إلى النور قادما من أعمق أعماق الجحيم ، حين قال ذلك مرة لجـاره الـذي كان يشاطره الحقل ، هناك ، في الأرض التي تركها منذ عشر سنوات، أجابه ساخرا:"هذا صوت قلبك أنت تسمعه حين تلصق صدرك بالأرض"(ص7) فـي ما "وقف أسعد أمام الرجل السمين صاحب المكتب الذي يتولى تهريب الناس من البصرة إلى الكويت، ثم انفجر: "خمسة عشر دينارا سأدفعها لك؟ لا بأس ! ولكن بعد أن أصل.." (ص22). أما مروان فقد خرج من دكان الرجل السمين الذي يتولى تهريب الناس من البصرة إلى الكويت ، فوجد نفسه في الـشارع المسقوف المزدحم الذي تفوح منه رائحة التمر وسلال القش الكبيرة.. لم تكن له أية فكرة محددة عن وجهته الجديدة... كانت الكلمات الأخيرة ، التي لفظها الرجل السمين حاسمة ونهائية ، بل خيل إليه أنها كانـت مـصبوبة مـن رصاص: "خـمسة عشـر دينـارا..ألا تسمع؟" (ص36).

بتلك القسمة الفنية، والتمهيد لأبعاد الحكاية ــ البعد الإنـساني أساسـا ــ عرضت كل شخصية رؤيتها مع تنامي الفكرة الأصيلة..ألا وهي الهـروب إلى الكويت، حيث الرزق أوفر من الحياة في جنوب العراق.وتأكدت الأزمة وثقل المهمة، مع متابعة الرجل السمين (أبو الخيزران) المستغل وصـاحب شركة الشحن أو سيارة نقل المياه من العراق إلى الكويت.. تلـك الـشاحنة المزودة بالفنطاس الخاص بتعبئة المياه. لم يفرد الروائي له فصلا ، وجعلـه مشتركا مع ثلاثتهم. ووصف أفعاله ، أنه رجل سمين ، يتصبب عرقا ، بليدا

وحادا في كلماته فظا في سلوكه ، وإن عرف عنه مهارته في قيادة أية ماركة من السيارات ، بل والمصفحات أيضا ، وهو ما حدث عندما استولت إحدى القرى على عربة مصفحة من الأعداء أثناء معارك 1948م. مع ذلك ما الحيلة ؟ وما الحل ؟ ليس سوى تنفيذ أوامره. وبدأت الرحلة.. بدأ تنفيذ "الصفقة"، وهو الفصل الرابع من الرواية: "-أنت تريد إذن أن تضعنا داخل خزان ماء سيارتك في طريق عودتك؟-بالضبط! لقد قلت لنفسي: لماذا لا تنتهز الفرصة فترتزق بقرشين نظيفين طالما أنت هنا ، وطالما أن سيارتك لا تخضع للتفتيش؟"-اسمع يا أبا الخيزران ، هذه اللعبة لا تعجبني! هل تستطيع أن تتصور ذلك؟ في مثل هذا الحر من يستطيع أن يجلس في خزان ماء مقفل؟

-لا تجعل من القضية مأساة ، هذه ليست أول مرة..." (ص61).

وعلى "الطريق"-الفصل الخامس- عرفنا أن أبا الخيزران فقد رجولته بسبب مشاركته لبعض الرجال المسلحين ، لكنه سقط في يد الأعداء ، وفقد رجولته معهم وبسببهم ، وقد قطعوا عضوه:

"ببساطة قد ضيع رجولته في سبيل الوطن؟ وما النفع؟ لقد ضاعت رجولته وضاع الوطن ، وتبا لكل شيء في هذا الكون الملعون.." (ص71) . قد نشعر بالشفقة الإنسانية تجاه الشخصية القميئة أحيانا!!

في الفصل التالي أحكم السائق غلق الخزان على ثلاثتهم ، وتابع الرحلة حتى وصل نقطة الحدود ، هناك شرب الشاي وسمع النكات ومضى الوقت في السمر.. بينه وبين جنود النقطة الذين يضحكون لتعليقاته وآرائه دائما... أما وقد تذكر الثلاثة ، أسرع عائدا بالسيارة ، حتى ابتعد ، وقف ، ثم فتح الخزان:" تحسس طريقه منحنيا إلى الفوهة ، وحين أخرج رأسه منها لم يدر لماذا سقطت في ذهنه صورة وجه مروان دون أن تبرح. لقد أحس بالوجه يلبسه من الداخل مثل صورة ترتجف على حائط فأخذ يهز رأسه.."وأخيرا

حرص السائق أن يعد للثلاثة قبراً لكل منهم ، فقط عندما يهبط الظلام، خصوصا أن الليلة بلا قمر!!.. وما انتهت المهمة انزلقت الفكرة من رأسه ثم تدحرجت على لسانه:"لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟؟"(ص110) وظل يكررها!!

تثير الرواية فور الانتهاء منها سؤال "الخلاص".. وما "المصير"؟.. فالحلول الفردية التي تبناها ثلاثتهم ، انتهت بموتهم... والحل الباحث عن خلاص فردي وبعيدا عن جوهر الأرض والبحث عن حل الخلاص من المحتل ومن مغتصب الأرض..ليس له من مصير إلا الهلاك.

تثير الرواية الشفقة ، حتى على أبي الخيزران (فهو مقاتل سابق ، وتأذى بسبب قضية الوطن ، تأذى في أشد ما يؤذي الرجل ، كما أنه صريح وواضح حتى في خسته ، فهو يطلب ما طلبه من أجل المنفعة والاسترزاق الخاص. وهو بذلك يكمل صورة الحلول الفردية غير المجدية ، مهما بدت الحلول حسنة النية أو غير ذلك.

الخبز المر" والبحث عن طريق!

"ماجد أبو شرار" يعرفه الساسة وقليل من الأدباء. استشهد جراء قنبلة في غرفة نومه بإيطاليا عام 1981م ، وهو تاريخ المجموعة! يقول الكاتب "يحيى يخلف" عنه في مقدمة المجموعة: "نشرت معظم قصص هذه المجموعة في مجلة "الأفق الجديد" المقدسية ، التي ظهرت مطلع الستينيات.. لعبت دورا كبيرا في تنشيط الحياة الثقافية.. وبالرغم من توقف المجلة عن الصدور عام 1966م ، إلا أن أثرها على الثقافة في الضفة الغربية والأردن ما زال ماثلا.. وقدمت المجلة على صعيد القصة القصيرة عددا من الكتاب، كان من أبرزهم: ماجد أبو شرار، نمر سرحان ، صبحي شحروري، محمود شقير، حكم بلعاوي ، خليل السواحري ، فخري قعوار، ويحيى يخلف.لقد تميز "ماجد" من بين تلك الأسماء ، ولفتت قصصه انتباه نقاد الأفق الجديد."

كما أبرز "يخلف" أن فترة كتابة تلك القصص تتميز ببعض الخصائص التي تحمل ملامح المرحلة في إطار مراحل التجربة الأدبية الفلسطينية، والتي تميزت عن غيرها من التجارب العربية ، لارتباطها بالمفاهيم الكلية، والتعبير عن الصمود والمواجهة والرفض ، كل ذلك في إطار عام حول الوطن، والمواجهة المباشرة مع العدو في حياة الإنسان الفلسطيني اليومي.. أو في إطار غير مباشر.. وفي كل الأحوال الأدب الفلسطيني هو أدب مقاوم. أما ما رصده الكاتب "يخلف" حول كتابات تلك المرحلة:

– إن القصص المنشورة على صفحات "الأفق الجديدة" تمثل الارهاصات الأولى لقصة فلسطينية ناضجة.. وهي التي سبقت ورافقت إنشاء "منظمة التحرير الفلسطينية" (أنشأت عام 1964م) حيث بداية الكفاح المسلح.

– إن قصص تلك المرحلة (والمنشورة في الأفق الجديد) تحمل دلالات سياسية واجتماعية للمجتمع المدني الفلسطيني (بعد النكبة في 1948م).

– تميزت قصص "ماجد" بالواقعية ذات المضمون الاجتماعي الملتزم بقضية الكادحين.. مع مسحة تأثر بالفلسفة الوجودية التي شاعت خلال تلك الفترة.

وبعد، فإن قارىء قصص مجموعة "الخبز المر" ، حتما سيجد مصداقية تلك الملامح التي رصدها "يحيى يخلف".. ولا يبقى سوى التقاطها بين ثنايا القصص. وهو ما توافق مع منهجي في تناول الأدب النثري الفلسطيني مرحلة فأخرى. تضم المجموعة (12) قصة قصيرة (توجد قصص أخرى، ربما ستنشر مستقبلا) وهي:"صورة"، "مكان البطل"، "النجار الصغير"، "أفاعي الماء"، "سلة الملوخية"، "برازق"، "تمزق"، "جسر منتصف الليل"، "الخبز المر"، "وانهار الجدار"، "الشمس تذوب"، "الزنجية". يقع الكتاب في 93صفحة ، وهو ما يكشف عن حجم القصص.. فلا توجد تلك القصص المطولة تحت عباءة القصة القصيرة ، كما كان شائعا في قصص تلك الفترة

في الكتابة القصصية العربية. كما أن تاريخ كتابة تلك القصص ما بين 1959م حتى 1964م ، أي حوالي خمس سنوات .

قصة "الخبز المر":

"فائق" شاب يعمل مع "أبو خميس" الشيخ وقد بلغ الخمسين من عمره، يعملان عملا قاسيا في منجم للفوسفات. الأول يحمل خصائص الشباب من فتوة وعفوية ورغبة في البحث ، على الرغم من كل الظروف الصعبة التي يعمل في ظلها. بينما الآخر شيخا مهموما طول الوقت ولا رغبة عنده إلا في الصمت!نجح الشاب في اقتحام شرنقة الشيخ ، فعرفنا هموم الرجل وآماله.. "سهيلة" ابنته المتفوقة في الدراسة حصلت على المرتبة الأولى في صفها.. الملعونة "ليلى" تحلم بسيارة حمراء ناعمة. أما الهم الأكبر فهو مرض الشيخ.. بدأ نور العين يذوي ، ولا يريد الشكوى حتى لا يفصل من العمل أنه مصدور ، مريض بداء السل ، وأيضا يطوي آلامه داخل صدره.

كل ما كان يتمناه ، ويكرره كحلم متجدد وأمنية غالية يرددها للشاب: كان يتمنى ألا يموت إلا بعد أن تكمل ابنته سهيلة دراستها الثانوية.

لكن: "ذات صباح لم يحضر أبو خميس إلى العمل.. علمت أن المرض بدأ ينتصر، وذهبت إلى بيته.. نوبات السعال بدأت تخمد وتهدأ، جذوة الحياة في عينية تخبو رويدا رويدا، ونظرة مسكينة محملة بألف معنى تواجهني كلما نظرت إلى عينيه، وسهيلة وأمها والبنات ينتحبن بصوت خافت، وأغمض عينيه ورفع كفه المعروقة، وانتفض، وسقطت كفه على صدره وأسدلت الغطاء على الوجه الهارب من الحياة" (ص70) .

قصـــة "مكـــان البطـــل":

"قلة.. أولئك الذين كانوا يعلمون أن العاصفة وشيكة.. وستأتي مزمجـــرة عنيدة طاحنة.. أما الكثرة.. فقد استسلموا لراحة لا لذة فيها.. فهم يعلمون أن الراحة سيعقبها تعب.. وينظر إبراهيم إلى ساعته ويسحب نفسا أخيـــرا مـــن لفافته ويلقيها ثم يدوسها.. يتمتم:"إنها النهاية..."(ص18) . تلك هي بداية القصة والتي كتب تحت عنوانها إهداء "إلى روح البطل.. إبراهيم أبوديـــة" (وهـــي الوحيدة المهداة إلى أحدهم). أما الجندي عبد الرحمن فقد ألقى بالجريدة التي يقرأها كتب عليها "القدس تستسلم".. وهو ما أغـــضبه ، حتـــى أنـــه مـــزق الجريدة. يخرج من حجرته ويطلع على أحوال الجنود (الوحدة تحتل إحـــدى القلاع الهامة عسكريا). قابل الجندي "جبر" ، يتحاوران حول أخبار الهجـــوم الوشيك من الأعداء على القلعة.. وهو الهجوم الخامس بعـــد فـــشل الأربـــع هجمات السابقة!

عبرت الساعة السادسة مساء ، وقرب الهجوم على بدايته ، ويشرد القائد "إبراهيم".. في زوجته وأسرته ، في أفاعيل العدو الغاصب ، في الاحتمالات المنتظرة.. إلا أن "جبر" الجندي النشط جاء بالخبر.. الهجوم هذه المرة مـــع استخدام الدبابات!! تكفل "جبر" و"عبد الرحمن" بالمهمة ،على أمـــل إعاقـــة الأعداء بدباباتهم المدرعة. بدأت المعركة ، واستمرت لثلاث ساعات.. فقـــد اثنان حتى الآن وبقي ثمانية وستون. ويذوب سواد الليل مع أنفـــاس النهـــار الجديد.. موت وحطام في كل مكان.. والمصيبة أن الدبابات بدأت الآن تأخذ دورها في المعركة. اتصل "إبراهيم" بالقيادة ، أمروه بالانسحاب.. وفـــورا. تابع الموقف ، فأمر رجاله بالانسحاب ، وبقي "جبر" المصاب.. حتى استشهد في موقعه."في السنوات القليلة التي تلت موت "جبر"، والتي قضاها "إبراهيم" طريح الفراش بعد إصابته في إحدى المعارك، كان يستدعي "سالم" وإخوتـــه ليذكرهم ب "جبر"..البطل الذي منح الحياة لزملائه نظير موته.

هاتان القصتان "أنموذج" لكتابة القصة عند ماجد أبو شرار

- القصة هي حالة إنسانية.. سواء بالتناول العسكري البطولي أو المباشر، أو التناول الاجتماعي لعامل أو غير عامل.

- البطولة تعني "الاستشهاد" ، والعمل من أجل الوطن. كما أنها "الصبر" على علات المرء من جراء هذا الوطن المحتل أو الفقير أو العاجز.

-الخصائص الفنية هي من ملامح كتابة القصة في زمنه ومكانه ، وربما تعد القصة عنده أكثر نضجا فنيا ، منها عند آخرين من أبناء جيله. فالراوي العالم بكل خفايا شخصياته ومصائرهم هو المهيمن على العمل ، وجهة النظر المباشرة الواضحة تكشف عن نفسها مع السطور الأولى للقصة. لذا كان استخدام ضمير المتكلم هو الغالب بين القصص.. إلا قصص "جسر منتصف الليل"، "تمزق"، و"مكان البطل"، استخدم فيها ضمير الغائب.. وقصة "برازق" استخدم فيها ضمير المخاطب. كما أن غلبة الحكي والسردية جعلت من القصص صور اجتماعية تارة أو نشيد للبطولة تارة أخرى.. (وهو ما كان شائعا في كتابة القصة في حينه) .

مرت القضية الفلسطينية بمراحل عديدة، على المستوى السياسي وربما الواقعي.. وهو ما انعكس تلقائيا على الإبداع. ففي فن الرواية بدت كل مرحلة على قدر خصوصيتها، بدت جلية في الرواية.. وهو ما نلتقطه هنا في رواية السبعينيات الفلسطينية.ففي عجالة ولدت الرواية الفلسطينية، ومرت بنفس ظروف وملابسات الرواية العربية. وإجمالا تعد رواية "مذكرات دجاجة" ل اسحق موسى الحسيني (في الأربعينيات من القرن الماضي) أنضجها، وإن اعتبرت رواية "رجال في الشمس" لغسان كنفاني هي الأولى التي يؤرخ بها للرواية الفلسطينية التي حققت البعد الفني والفكري معا (في الستينيات من القرن الماضي).وقد أصيبت الرواية بالصدمة بعد عام النكبة حتى صدرت أول رواية بعدها عام 1955م رواية "صراخ في ليل طويل/ جبرا إبراهيم جبرا"..وربما يمكن الإشارة إلى الروايات الصادرة في الخمسينيات حصرا:" المتسلل/ توفيق معمر"، "ثمن النصر/ مجهول"، "بتهون/توفيق معمر"!!ومع الستينيات كان البحث عن الطريق، وشعلة المقاومة مجددا.

"الوطن في العينين" .. للروائية "حميدة نعنع":

بيضة الديك هي تلك الرواية المتميزة "الوطن في العينين" للروائية العربية "حميدة نعنع" ، نشرت عن دار الآداب ببيروت عام 1979م. لم تنشر الكاتبة رواية غيرها – على حد علمي- وأضافت بها بعدا جديدا في أدب المقاومة الفلسطينية.. فهي لكاتبة على قلة الكاتبات الروائيات خلال تلك الفترة ، بطلتها سيدة تخوض تجارب قد تتحدى بها تجارب الرجال في الجرأة والمعالجة ، تتناول الرواية البعد الإنساني وربما البيولوجي للأنثى ، والبعد الأيديولوجي لقضية ساخنة . تلك التقدمة غير الفنية والتقريرية ، أظن أنها

هامة في تناول الرواية المقاومية الفلسطينية ، وفي محاولة الاقتـراب مـن العمل الروائي ومعطياته، وليس مصادرة لأي رأى آخر.

العنوان "الوطن في العينين" وهو أول ما يطالع القارىء ، يعـد تقريريـا حميميا معا. فكما تقول الأم لولدها أو لحبيبها.. "أنت في العـين" ، تقولهـا الكاتبة وبدلالاتها العاطفية ، وهو ما يجعلنا نتساءل: كيف نجحت "نادية" في تحقيق ما وعدت به الكاتبة أمام القارىء؟ "نادية" الفتاة الفلسطينية ، تمـارس حرية اتخاذ القرار (مثل الرجال في الروايات التقليدية) ، فأحبت الفدائي "أبو مشهور" وتوحدت به. عندما استشهد تعلقت بالثوري الفرنسي "فرانك" وهـو صاحب الرأي الحر ومضاد الاستعمار في أفريقيا ، ثم انتقلت إلـى مرحلـة ثالثة برفض الفرنسي والعودة إلى بلدتها بفلسطين.. ومارست المقاومة مـع العدو على الأرض ، أرض الوطن.

إذن ، نحن أمام بطل أنثوي ثوري ، عبر عن صراعاته بهدف واضـح. عندما ترك الأرض وذهبت نادية إلى فرنسا، لم يكن للنزهة ، للمقاومة أيضا. وعندما أحبت العربي الثوري ، وبعد أن وجدته بدأ يهادن تركتـه عائـدة.. حيث بدأت المقاومة المسلحة. إننا أمام امرأة عربية جديدة ، إيجابية وفاعلة ، وهى بذلك تضيف ملمحا إلى ملامح "المرأة" الفلسطينية في الرواية.. عنـدما كتب "غسان كنفاني" روايته "أم سعد" ، كانت الأم التي تحث ولـدها علـى الكفاح.. وعندما قدم "يحيى يخلف" المرأة في روايته "نـشيد الحيـاة" بـدت الشريك الموافق والمشجع.. فيما بدت المرأة عند "سحر خليفة"تسعى للتحقـق في "مذكرات امرأة غير واقعية" ، وإن بدت المرأة فاعلة ومتحققة في رواية "عباد الشمس". وقد بدت عملية الاسترجاع والتذكر هي جوهر البناء الفنـي للرواية ، كما بدت نادية منفعلة ثائرة ، وهو ما جعل للصوت الزاعق أحيانا وجودا ببعض المواضع بالرواية.

"إلى الجحيم أيها الليلك".. للشاعر "سميح القاسم":

"سميح القاسم" أحد شعراء المقاومة المعروفين على مستوى الوطن العربي إلا أننا نتقابل معه هاهنا كناثر/روائي ، كتب رواية "إلى الجحيم أيها الليلك"، حتى وإن أطلق عليها مصطلح "حكاية" بدلا عن الرواية!.. وهي ليست الوحيدة فله رواية أخرى بعنوان "الصورة الأخيرة في الألبوم" وغيرها من الأعمال النثرية والمسرحية ، فضلا عن الأعمال الشعرية العديدة.

صدرت الرواية عام 1978م ، تقع الرواية في ثلاثة فصول: الانشطار – الهاوية – المواجهة. وهي تمثل الصراع على ملكية مكان / الأرض ، أليست القضية الفلسطينية برمتها صراعا على الأرض؟!والكاتب من أجل تحقيق ذلك فنيا ، لجأ إلى حيلة ذكية.. فقد رصد الروائي البعد التاريخي قبل وصول العبرانيين ، ثم تنزح الحبيبة "دينا" بسبب تحطم بيتها بفعل قذف غبي من طائرة الأعداء ، وبنزوحها تبدأ المضايقات من جنود الاحتلال.. ولإثبات ملكية الأرض ، يدور الصراع أو الحركة للعرب داخل أماكن محددة وثابتة، هي: حيفا ، تل أبيب ، القدس ، الخليل. بينما لإثبات هشاشة المكان وعدم ملكية الأرض للإسرائيليين ، تدور الأحداث لهم من خلال: مقهى غان، ومقاهي أخرى ، موقف سيارات ، بيت عاهرة ، المحطة المركزية بتل أبيب. كلها أماكن متحركة أو قابلة للتحرك وعدم الثبات أو طارئة.

يتذكر الراوي طفولته ، مع دينا ومع أبيه صاحب النشاط في الخليل وحيفا. أما وقد جاء الاحتلال وكان مخيم اللاجئين.. يرفضه ويطلق عليه معسكر اللاجئين ، تيمنا بكونه معسكر للجنود المحاربين . لعل اقتطاع جزء من أقوال بطل الحكاية في أحد البرامج الإذاعية "أبناء سام" يعطي صورة عما يجيش في صدره ويدور برأسه ، يقول: "...المهم هو أن تفكروا بجد في سبيل ما ، في ثغرة ما ، للخروج من الدم ، العدل المطلق في حالتنا هذه شئ

مستحيل ، لن نتفق عليه الآن، وقد لا نتفق لأجيال قادمة ، اعترفوا لي بشئ من العدل.. وإلا فسآخذه بكل ثمن".

في مقابل شخصيات العدو المتمثلة في العاهرة "أم أوري" (وقد جعل منها الروائي تمثيلا للعدو ، والطريف أنه يقر لها بالتفوق جنسيا ، وعلى الجانب الآخر تفوق العدو)والسمسار (وإن بدا كره البطل له لكونه ماركسيا تلك الأيديولوجية التي تنظر إلى عمل السمسار بريبة وشك ، فهو شخصية كريهة إنسانيا، كما رسمها الروائي بالرواية) وغيرها من الشخصيات الدنيا والمرفوضة. يبدو البطل مثقفا مقتنعا بقضيته ، يتناقش بقدر وافر من الهدوء والثقة، يبدو مرجعها الثقة في حقه ، حتى وإن كان العدل المطلق شئ مستحيل على حد تعبيره. فهو يدعو إلى مخرج عادل من النفق المظلم.. وإلا فسيأخذه بكل ثمن ، وهنا القضية التي تجعل من هذا العمل بؤرة تنبئية (كما كل الأعمال الإبداعية الجادة.. وإن تناولت الآني إلا أنها تتنبىء بالمستقبل وعلى درجات متفاوتة).

لعل الجامع للروايتين عدد من الافتراضات التي تشكل من كليهما معا تعبيرا عن مرحلة من مراحل القضية الفلسطينية: أنهما معا نشرا خلال فترة قريبة جدا ، وهو ما يشير إلى كونهما يعبران عن واقع الحال والمعطى الفعلي لحال القضية الفلسطينية في حينه. عبرت الرواية العربية خلال بحثها عن علاقة "الأنا" و"الآخر" من خلال البطل "الطالب" في العديد من الأعمال السابقة.."عصفور من الشرق/توفيق الحكيم"، "الحي اللاتيني/ سهيل إدريس"، وأيضا "قنديل أم هاشم/ يحي حقي".. بينما البطل هنا هو أكثر نضوجا ، وقد تجاوز مرحلة الدهشة والانبهار بالآخر ، وإن بقي معلقا بالآخر.. ففي "الوطن في العينين" ذهبت البطلة إلى أوروبا للعمل بل والجهاد والمقاومة، وفي "إلى الجحيم أيها الليلك" ذهب البطل إلى "موسكو" للشفاء أو للعلاج من مرضه وهذا جانب: الآخر في الرواية الأولى مجاهد ، وأحبته "نادية" لهذا

السبب، أما وقد اقتربا أكثر من اللازم ،وبدأ "فرانك" في التقاعس ، فلا بديل عن تركه ، والعودة إلى الوطن الأم.بينما في الرواية الثانية ، بدا الآخر ثقيلا وجاثما ، بحيث أصبح الفكاك منه إلى الآخر (الخارج) محدودا ، إلا من أجل الشفاء.. وهو ما يشير إلى كون "الماركسية" حلا ممكنا عند الروائي.: لم تتخلص كلا الروايتين من كون الآخر يمارس "العنف"، وإلى حد القمع في الرواية الثانية.: الروايتان تقدمان حلولا، سواء بممارسة المقاومة، أو الصمود للقمع ، أو بتبني أيديولوجيا ما.. وهو ما يكشف في جانب البحث عن حل ما أمام مشكلة لم تنته بعد.

إذا كان الإبداع الفلسطيني في الستينيات يكشف "البحث عن طريق ما للخلاص" ، فتلك الروايات التي نشرت في السبعينيات تكشف "العثور على الذات الفاعلة والمقاومة". وليس من الإفاضة القول بغلبة الشعارات في عقد الستينيات ، وهو العقد الذي شهد نكسة يونيو.. بينما عقد السبعينيات عقد الفعل والتفاعل وشهد انتصارات أكتوبر.

"مدخل غير أدبي":

شاع لفظ "الإرهاب" تعبيرا عن "المقاومة" ، كما شاعت كلمة "الانتفاضـــة" تعبيرا عن "المقاومة" ، حتى أن ترجمتها فـــي وســـائل الإعـــلام المرئيـــة والمسموعة والمقروءة فـــي الخـــارج.. بـــنفس نطقهـــا ولكـــن بحـــروف لاتينية!صبرنا حتى وصل المعنى ، وفهم الجميع الدلالة ، أيا ما تكون الكلمة على الرغم من كل محاولات التهميش . عرف الجميع أن مشهد هذا الطفـــل الذي يلقي حجرا على دبابة ، وتلك المرأة التي تصرخ في وجـــه الجنـــدي الإسرائيلي ، وهذا الـــشاب المعلـــق بجـــدران بيتـــه المتهـــدم.. وغيرهـــا، تعني"الانتفاضة تلك الحالة التي عليها الشعب الفلسطيني في مواجهـــة قـــوة غاشمة مدججة ".

لم تكن آثار تلك الانتفاضة "الأولى والثانية" مواجهـــة تقليديـــة ، ولا هـــي جعجعة حناجر ، رصدتها مراكز البحث والدراسات ، وأعلنت النتائج داخل إسرائيل وخارجها ، فكانت في مجملها صورة قاتمة ألمت بالاقتصاد والحياة الاجتماعية في إسرائيل ، بدت كالتالي:تقهقر صناعة الخـــدمات ، وأهمهـــا القطاع السياحي ، وقل عدد السياح المترددين على إسرائيل بعـــد أن شـــعر السائح أنه غير آمن ، وأحيانا يرفض المشاهد التي تصدمه ، على حين فجأة وبغير توقع..وتقهقر أو لنقل تذبذب صناعة التكنولوجيا ، بعـــد أن نجحـــت إسرائيل في الدخول إلى تلك الصناعة المربحة ، وتسويقها علـــى مـــستوى العالم.. وإن استفادت من صناعة الأسلحة ، وراجت تلك الأخيرة. وتقهقرت أعداد المهاجرين إلى إسرائيل ، على عكـــس الفتـــرة الـــسابقة للانتفاضـــة (الأولى). فقد زادت المعدلات إلى حد أن الهجرة إلى إسرائيل تفوقت علـــى الهجرة منها بأكثر من عشرة أضعاف، فلما كانت الانتفاضة ، تساوت تقريبا

الهجرة من وإلى إسرائيل ، وهي حقيقة غير مرضية للسياسات الاستيطانية والأمنية هناك.وتقهقر الإحساس بالأمن والأمان داخل فلسطين المحتلة مع المستوطنات.. وهو ما أثار الكثير من الأسئلة ، حول مصير تلك المستوطنات مع المستقبل غير المطمئن في حالة أية متغيرات أمنية مع الفلسطينيين. وزادت معدلات رفض التجنيد ، بل ورفض تنفيذ الأوامر للمجندين، حتى كانت قضية الشباب الطيارين الممتنعين التي تناولتها وسائل الإعلام. وهي ظاهرة في العرف العسكري ، تعد من أخطر الظواهر التي يمكن أن يتعرض لها جيش ما.. ثم هددت الانتفاضة "نظرية الأمن الإسرائيلي" ، وهو ما يمكن أن يعتبر من أهم منجزات الانتفاضة. تلك النظرية التي تعتمد على استخدام العنف بأقسى صوره ، وحرمان الطرف الفلسطيني من السلاح. مع ذلك ، لم تنجح النظرية ، ولن!!

نتيجة تلك "الانتفاضة".. بدت القريحة الفلسطينية الإبداعية ، وفي كل الفنون مقيدة إليها. ربما في مجال الكلمة ، نثرا وشعرا ، بدت بعض المشاهد أكثر بروزا: مشهد الاعتقال والسجن ، مشاهد الحياة المهددة بالمخيمات ، مشاهد الحصار ، مشهد المعابر والحواجز. وقد رصدتها الأقلام النقدية بالدراسات الهامة.."ناهض زقوت ، د.محمد البوجي ، د.عادل الأسطة ، "فايز أبوشمالة صبحي شحروري ، أحمد دحبور، أ.د. نبيل أبو علي ، صابرين الطرطور ، سعيد محمد إبراهيم ، فتحي درويش ، محمد توفيق الصواف ، د.نبيه القاسم..وغيرهم.

ربما من المناسب الإشارة إلى المناخ السياسي العام الذي انعكس مباشرة كدافع من دوافع الانتفاضة.. حيث كثرت عمليات الطرد والتهجير الإجباري بواسطة سلطة الاحتلال. راود الجميع شبح أحداث 1948 م وأصبحت فكرة الترحيل الجماعية مسيطرة على رؤوس الجميع ، والتهب الشارع الفلسطيني.. وأصبح تعبير "ترانسفير" من التعبيرات المتداولة. فكانت أولى

القصص التي عبرت عن تلك الحالة (ربما) ، قصة "تكون لنا راية".. وفيها يتساءل الكاتب: ماذا لو صرت "صرصارا" ، تتحرك بحرية ، ولا يوقفك جنديا ، ولا يجوس داخلك أنبوب من المطاط؟؟! أما أن ترى نفسك هكذا ، مع الآلاف وقد تحولوا جميعا إلى صراصير ، فيذهب منها من يذهب إلى بزة الجنرال "المفتري" ، فلا يستطيع منها فكاكا ، إلا أنه على مبدئه.. ترحيل كل الصراصير ، التي أصبحت بالملايين ، بواسطة الشاحنات إلى موانئ العالم.(حلت المشكلة الفلسطينية إذن!!) أشارت بعض القراءات لتلك القصة ، أن المقصود هو "الجنرال رفائيل ايتان" الذي خطط لمذبحة "صبرا وشاتيلا" ، فهو الذي اقترح في تلك الفترة على حكومته أن تقسم الأراضي العربية المحتلة، وتقطيعها بالمستوطنات الإسرائيلية، وقتها "سوف يصبح العرب كالصراصير المخدرة في قنينة!"فلما كانت "الانتفاضة".. نشير إلى رواية "أحواله وأحوالنا" للروائي "حافظ البرغوثي" ، وقد رصد مبكرا صراعات الانتفاضة ، ولعلها الرواية الأولى التي تناولت "الانتفاضة" موضوعا لها.

ربما لا ينافسها في أسبقية التعبير عن الانتفاضة ، إلا رواية "أحمد ، محمود والآخرون " للروائي "زكي درويش" (ولد بقرية البروة 1944م) ، له العديد من المجموعات القصصية والروايات ومسرحيتان.تبدو رواية "أحمد ، محمود والآخرون" شديدة البساطة في عرضها وشخصياتها ومعالجتها أيضا، كل فصل باسم شخصية من شخصيات الرواية.. أسرة متوسطة المستوى تعيش في "طولكرم" (تلك البقعة من الأرض التي يعتبرها البعض رمزا باسمها، فهي أقرب النقاط العربية إلى الحدود الإسرائيلية ، وقد وظفها الأدباء رمزا في تلك الخاصية، ومنهم "غسان كنفاني").. الأب الفلاح من شدة الحاجة اضطر للعمل في "تل أبيب" ، ولتمرده على الجندي الإسرائيلي،

قتل.. اضطر "أحمد" لأن يترك الدراسة ويعمل ، حتى يعيل الأسرة ، ويتابع شقيقيه "محمود" و"ديمة" التعليم.

ذهب إلى بيروت ليعمل ، فشارك في العمليات الفدائية ، ولما أحب ، كانت حبيبته معلقة ب"كمال" الفدائي الذي استشهد في اجتياح لبنان. تسافر الحبيبة، ويتابعها أحمد ، وكان سفره إلى الكويت للعمل.

تبدأ الانتفاضة على الأرض الفلسطينية ، وتشارك "ديمة" (الأخت الصغرى)، لتفقد عينها اليسرى ، وتحزن الأم حزنا شديدا ، ويظل الحزن هو سمة الأم حتى يهدم بيتهم انتقاما من سلطة الاحتلال بعد متابعة محمود الجهاد.. لم تتحمل الأم أكثر ، ماتت.بقاء أحمد لم يدم طويلا في الخليج ، عاد بعد أن تابع كل ما كان ، وما توقعه جعله يقرر أن يشارك بنفسه ، وأن يعود.. وتنتهي الرواية بعودته مع الانتفاضة المتأججة.

الحضور الأدبي في الانتفاضة:

لعل الشعر أكثر الفنون إيجابية ، فالشعر دوما سباق في كل المواقف الحياتية الخاصة/ العامة ، وهو حال الشعر مع الانتفاضة الفلسطينية. كما كانت القصة القصيرة عنصرا مشاركا وإيجابيا ، مع قلة عددها نسبيا مقارنة بالقصائد الشعرية. وإن كانت الرواية من أرسخ الأشكال التعبيرية الأدبية في تنوع مواقفها ومساحتها الزمنية والمكانية ، وبالتالي تتيح مجالا كبيرا للتعبير عن الأحداث الكبرى في حياة الأفراد والشعوب.. إلا أنها أيضا الأقل في التعبير عن الانتفاضة وهو ما يرجع إلى عوامل تقنية الرواية كفن مركب وطويل ، واحتياج الروائي إلى البعد الزمني اللازم لتعمق الفكرة والبحث عن أغوارها ، ولأهمية توافر الرؤية البانورامية لتلك الأحداث. وهو ما يبرر عدم توافرها بكثرة مقارنة بالأشعار أو حتى القصة القصيرة حول الانتفاضة. ومع ذلك كانت هناك بعض اليوميات أو السير الذاتية التي تفاعلت بين الذات

الأدبية والانتفاضة.ربما يكون من المناسب الإشارة إلى عدد من تلك المجموعات القصصية والرواية بل والنثريات التي أفرزتها التجربة والتي تناولت "الانتفاضة" موضوعا لها:

قصص: "أن تكون هنا/ امتياز ذياب -1993م" - الصبي والشمس الصغيرة"/غريب عسقلاني 1991م- "حمام في ساحة الدار/ جمال بنورة 1990م" - "حكاية الناس والحجارة/ رشاد أبو شاور -1989م" - "الدوائر برتقالية/ عبدالله تايه -1991م" - "قف للتفتيش ومن يخاف؟/ غنام صابر غنام -1988 و1989م" - "دماء على قارعة الطريق/ محمود عفانة - 1992م" _ "حيطان من دم/ زكي العيلة - 1990م" - "مفترق البيارات/ أحمد السعيد نجم -1991م" - "أنفاس الجليل/الأعمال الكاملة - محمد نفاع- 1998م".

روايات ونثر: "السيناريو والمقدمات في الأمواج البرية/ إبراهيم نصر الله- 1990م "الخيمة المحاصرة/إبراهيم العلم -1993م" - "حوار مع إسرائيلي/ أحمد رفيق عوض -1992م" - "جليلة، في جذور الانتفاضة/ أكرم النجار - 1990م" - "انتفاضة/ جمال بنورة -1999م" - "تمتمات آخر الليل/ حسين مهنا -1989م" - "أحمد محمود والآخرون/ زكي درويش -1989م" - "أسئلة صعبة في زمن الانتفاضة/ سعادة سوداح -1989م" - "رسائل لم تصل بعد/ عزت الغزاوي -1991م" - "ونحن يا مولانا/ علي فتح الله الخليلي -1989م" - "عودة الأشبال/ فاضل يونس -1986م" - "زغاريد الانتفاضة/ محمد وتد -1988 و1989م في جزئين" - "أنصار شاهد على عصر الجريمة/ ناصر الدمج -1991م" - "البالوع/ أحمد يعقوب" 2003- "صباح المواطن/ هايل عساقلة -1989م" - "إنهم هناك/ يحيى الجو جو".

الانطباع العام الذي تثيره تلك الأعمال ، أن الانتفاضة حادث تاريخي ولم يمر دون أن ترصده الأقلام ، وبالتالي يبقى لأدب المقاومة دوره الهام في

الذاكرة القومية للشعوب. هناك نماذج من الأعمال التسجيلية التي رصدت بعض أحداث الانتفاضة ، وإن تعددت الآراء الفنية حول قيمة "التسجيلية" فنيا ونقديا ، إلا أن الحرب العالمية الأولى هي التي أفرزت هذا الشكل الروائي على يد الكتاب الروس.. أي من خلال مفاهيم "المقاومة" ، والتسجيلية تعد من أهم ملامح "أدب المقاومة". يكفي الإشارة إلى العملية الفدائية التي نفذتها "دلال المغربي" وقد رصدها "فاضل يونس" في روايته التسجيلية "عودة الأشبال"..وغيرها من الأعمال.

كما بدت بعض الأعمال وكأنها مزيج من القصة القصيرة والسرد الروائي والشعر ، وربما الموتيفات المتنوعة كما في "البالوع" لأحمد يعقوب ، وهو ما جعله يعنون الكتاب ب"نصوص". الهام هنا أن التجربة نفسها (التجربة المقاومية والحربية) أفرزت الشكل نفسه في العديد من الأعمال العربية ، مثل "بردية من أكتوبر" للشاعر "أحمد الحوتي" بعد معارك أكتوبر والعبور في عام 1973م.

ثم نشير أخيرا إلى تلك النثريات التي اتخذت من الحوار شكلا ، وإن بذل أصحابها جهدا ما ، ربما تصلح لأن تصبح رواية حوارية. إلا أن هذا الشكل في ذاته يعبر عن جوهر البحث في الذات والآخر ضمن محاور "أدب المقاومة". منها "حوار مع إسرائيلي/ أحمد رفيق عوض -1992م" حيث البحث عن الحق والحقيقية، بل والبحث عن جوهر الإنسان في كل ما يدور على الأرض الفلسطينية.

بعض محاور أفكار القصص القصيرة المعبرة عن الانتفاضة ، والراصدة لأحداثها ، وهي قسوة العدو الإسرائيلي في مواجهة الانتفاضة.. وهو ما عبر عنه "محمد نفاع" في قصة "الجنرال".. ذاك القائد العسكري الذي أمر بجمع الأطفال لقتلهم أمام أعين أمهاتهم دور المرأة في الانتفاضة.. وهو من إيجابيات الانتفاضة أن جعلت من دور المرأة في الحياة متكاملا ، وغير

مقتصر على الدور التقليدي للمرأة بل شاركت في الكفاح. ففي قصة "صباح بعد انحسار الغطاء" للكاتب "محمد نفاع". تظل المرأة تعاني الآم المخاض، الانتفاضة. بينما زوجها في المعتقل الإسرائيلي ، تسترجع ذكرياته معها، وتفرح عندما تلد، وكأن حضور زوجها (المتصور) وقد حضر مع لحظات الولادة ، حقيقة واحدة.: دور القيم الروحية في تزكية الانتفاضة.. وهو ما عبر عنه القاص "فياض فياض" في قصة "طز.. قيد له"، فيكون نداء "الله أكبر" داخل المسجد محفزا لمواصلة الانتفاضة ، وقد أشار إلى محاولة اليهود سرقة المقدسات الإسلامية في القدس.: إبراز الجانب الإنساني للإنسان الفلسطيني العربي ، بالرغم من كل الوحشية التي يتعرض لها.. وهو ما برز في قصة "الحاجز" للقاص "نبيل عودة" حيث يستوقف الجنود الإسرائيليين أحد الأطباء الفلسطينيين لعلاج مصاب إسرائيلي ، وبعد تردد يوافق الطبيب . وهناك بعض القصص التي انشغلت بنقد الموقف العربي، مثل أحداث الحرب الإيرانية/ العراقية ، وكذلك أحداث غزو الكويت.. وهو ما أثر بدرجة ما على ما يجري على الأرض الفلسطينية.. وضح ذلك في قصص: "دماء/ محمود سعيد"، و"الجندي الآخر/عبد الستار خليفة".

قليلة هي الرواية المعبرة عن تجربة "الانتفاضة" (نسبيا). وقد أشار إلي تلك الملاحظة "د.مصطفي عبد الغني" في كتابه "الاتجاه القومي في الرواية" يقول:" ويلاحظ في ذلك كله أن الروائي لم يصنع بطلا واحدا- على كثرة الأبطال الأسطوريين وغلبة أدوارهم -وإنما تحولت الانتفاضة- في حد ذاتها- إلى حالة (أسطورية) غير عادية ، تنسج خيوطها هذه الحركة اليومية المستمرة من نضال آلاف الكوادر والمقاتلين في الأرض المحتلة ، أو داخل المعتقلات الإسرائيلية غير الإنسانية ، وحالة الحصار التي تفرض على المخيمات بشكل مستمر لإرغامهم على التسليم ، أو استخدام الأسلحة المحرمة دوليا، وما أكثرها، للنيل من الأطفال والنساء والشباب الفلسطيني،

أو -حتى- بمواجهة أولئك المتعاونين مع القوى الصهيونية ضد حركة المقاومة واستمرارها.." (ص340) وقد اعتمدت محاور تلك الروايات على عنصرين أساسيين: تصوير وقائع نضالية/مقاومة.. حيث كتب الروائي "محمد نصار" رواية "صرخات" راصدا مجزرة "مخيم جباليا" ضمن أحداث الانتفاضة حيث استشهد ثمانية عشر فلسطينيا. صور الروائي الكثير من صور الاضطهاد والقسوة في معاملة الأسرى والمعتقلين وذويهم. تتبع الروائي أحد الأسرى الذي أشفق على زوجته وطلب منها الموافقة على تطليقها. رفضت الزوجة ، لكنه طلقها ، لتتزوج ابن عمها وتصاب بمرض تفقد بعده الذاكرة. أما وقد خرج الأسير من المعتقل ، لم يعثر على أسرته، حتى وجد زوجته المريضة تسير في إحدى المظاهرات وتصرخ للإفراج عن زوجها الذي لم تعرفه.: تصوير الحياة اليومية في ظل الاحتلال.. كتب الروائي "عبد الله تايه" رواية "العربة والليل" التي تتضمن تفاصيل أحوال سكان المخيم تحت ظل أوامر حظر التجول المستمرة والممتدة والتي تصل لعدة أيام. فيقل من يخرج للعلاج أو لشراء طعام لأطفاله ، أو حتى للعثور على جرعة ماء.

وقفة مع بعض القصص والروايات:

إجمالا يمكن القول بأن الخطاب الأدبي خلال الانتفاضة تحريضيا ومتفائلا والشخصيات إيجابية.. وربما قصة "اسحب تربح" للقاص "صبحي حمدان" تبرز هذا الجانب بقدر من البساطة حينما تعامل مع بائع الترمس الذي يسعى للانتهاء من البيع سريعا حتى يتفرغ للمشاركة في أعمال الانتفاضة الجارية في شمال المدينة !

لم يعد الكاتب الفلسطيني حريصا على تلك البكائيات التي شاعت في شعره وقصصه منذ 1948م.. حتى أن الدارسين استسهلوا استحضار موضوع

"سقوط الأندلس" في الشعر الفلسطيني قبل الانتفاضة ، وتعددت الدراسات حول نفس الموضوع . وهو بالحقيقة التي تعامل بها الأديب الفلسطيني مع موضوع الأندلس حتى أن استحضار رموز الأندلس المكانية/ الأدبية /بل والقيادات الحاكمة مع استحضار الوقائع الأندلسية الشائعة.. كان من الظواهر الفنية في الأدب الفلسطيني قبل الانتفاضة.

"النبوءة".. في رواية "العربة والليل" للروائي الفلسطيني "عبد الله تايه":

صدرت الطبعة الأولى من رواية "العربة والليل" للروائي الفلسطيني "عبد الله تايه" عن منشورات أبوعرفة – القدس عام 1982م . تحتل الرواية موقعها الزمني الهام على خريطة الرواية الفلسطينية ، من حيث أنها تتناول التجربة الحربية/الأدبية الفلسطينية خلال مرحلة البحث عن الذات الجديدة المقاومة للإنسان الفلسطينى. وهو ما يمكن التقاطه من خلال الموضوع والعديد من الشواهد والحوارات ثم المعطى الفني والدلالي للرواية . لذا كانت فكرة "النبؤة" هي المدخل والمنتهى في قراءة هذا العمل المقاومي الجاد والطموح .

لقد مرت التجربة المقاومية/الأدبية الفلسطينية بعدة مراحل .. منذ بداية القرن العشرين وحتى عام 1948م ، وقد بدت التجربة الأدبية الفلسطينية مشاركة للتجربة العربية (في بدايات القرن) حيث البحث عن الذات والهوية وإحياء الملمح العربي وتراثه ، خصوصا في الشعر..ثم كانت الملامح الرومانسية لبعض الإنتاج الشعري .أما المرحلة الثانية فهي الفترة السابقة على النكبة عام 1948م حيث استشعر الشاعر والأديب بخطورة ما يحاك من حوله في فلسطين. وقد بدأت "الرواية" تشارك كجنس أدبي قادر ومعبر ، فكانت الأعمال التي عبرت عن ذاك التوجس ، كما في رواية "مذكرات

دجاجة/اسحق الحسيني". والمرحلة الثالثة تبدأ اعتبارا من تاريخ النكبة حتى عام 1967م ، وهي مرحلة استحضار الذات المقاومة ، والتمهيد لكل المراحل التالية. والمتابع يقرأ للمرة الأولى -ربما- تلك الدراسات النثرية والأدبية حول مفهوم المقاومة، وترسيخ الفكر المقاومي في كثير من الأعمال الأدبية بمختلف الأجناس. ونشير سريعا هنا إلى كتاب الدراسات الأدبية "أدب المقاومة/غسان كنفاني".ثم كانت المرحلة ما بين عامي 1967م حتى 1987م حيث اشتعلت الانتفاضة الأولى. خلال تلك الفترة ، رسخت العديد من المفاهيم، وحمل الأديب الفلسطيني لواء الشعلة ، بحيث بدت القضية الأم الأرض المسلوبة وما يحيط بها من أحداث عامة ويومية هي الهم الشاغل للمنتج الإبداعي الفلسطيني .

تقع رواية "العربة والليل" للروائي "عبد الله تايه" خلال المرحلة الثالثة، وتحمل كل ما تحمله تلك المرحلة من ملامح عامة ، بالإضافة إلى ملامحها الخاصة . بدت الرواية مفعمة بالأسى والأمل، معبرة عن الذات الجمعية في نبل ، وعن الراوي الخفي/الروائي بصدق وإخلاص. هي رواية قصيرة (نوفيلا) ، تولى قص أحداثها راوي مشارك في الحياة اليومية سواء من الطبقة الكادحة وسكان المخيمات الفلسطينية المناضلين ، أو من فقراء الإسرائيليين المجندين .. وهيمنة الراوي العالم بكل التفاصيل/الروائي من خلال معايشة الأحداث أو بالتذكر .

تنقسم الرواية أربعة أقسام غير متساوية (حجما) ، يتولى واحد من الشخصيات سرد أحد الفصول ، فكان أكبر الفصول أولها على لسان "أبو عزيز" ، وآخرها أصغر الفصول على لسان "محسن علي الزرقاوي" أحد المعتقلين أو المساجين ، وقد صدر القرار بالعفو عنه . لعله لا يتضمن أكثر أو أبرز من عناق رفقاء السجن ، ووصاياهم له – سلم لي على والدتي – طمئن عني علي – قبل طفلي الصغير – سلم على الجميع، أخبرهم

بضرورة توكيل محامي ــ مع السلامة.إذن علمنا بوصول أربعة من المناضلين إلى السجن في الفصل الأول ، مقابل خروج واحد فقط من المناضلين. كما علمنا بتلك السعة التي تضيق ، وتضيق ، ليس على المساجين ومظاهر الحياة ، بل شعرنا بها وأحسسناها كلما أوغلنا في الرواية

والآن نتوقف قليلا أمام تاريخ الانتهاء في تلك الرواية والمسجل في آخر الفصول "صيف 1979م".. وهي الرواية الثانية للكاتب ، والكتاب الثالث له في النشر العام لأعماله في تلك الفترة والتي بلغت حتى الآن عشرة أعمال ما بين الرواية والمجموعات القصصية عدا عن كتب أخرى في مجالات متعددة.أظن أن تلك الرواية حينها ، كانت تحمل من الأفكار والرؤى ما يمكن أن نطلق عليه .. أن في الإبداع الصادق والجاد بصيرة قد لا نلتفت إليها في حينها ، وتبدو لافتة ومحيرة إلى أن نطالعها فيما بعد ، بعد سنوات ، فنردد أن هذا الكاتب يملك بصيرة نقية . وهو ما يمكن أن نطلقه على "عبد الله تايه" من خلال هذا العمل . ما دفعني لأن أجعل محور تلك القراءة فكرة "النبوءة" التي نلتقطها فور الإنتهاء من قراءتها . إطلالة سريعة إلى أحداث الرواية .. قاعة محكمة ، صدور الحكم بالسجن على أربع شخصيات ، العجوز "أبو عزيز" والشباب الثلاثة : نبيل خضر، حسن رباح فتحي الراعي ، وهم أنفسهم رفقاء الدرب مع "عزيز" الإبن ، وقد تمكن من الفرار ولم يقبض عليه . ليبقى أمل المقاومة ، ولتستمر المقاومة بيد الابن بعد سجن الأب ، استمرارا لتاريخ جهاد الجد والأب والحفيد .

عندما تتحرك السيارة في الفصل الأول ، يتابع الراوي "أبو عزيز" حتى نهاية الفصل . أما الراوي في الفصل الثاني فهو على لسان المصاب السجين الثاني "نبيل خضر". فيما يبدو الفصل الثالث محورا هاما للكشف عن وجهة نظر الروائي ، حيث سرده عن الجندي الاحتياط الإسرائيلي "موشيه" ابن "أبراهام" .. والأب الإسرائيلي هذا صديق أبو عزيز أو زميل عمل . كم من

مرة حضر الابن (موشيه) مناقشتهما (الهامة) أثناء زيارة الثاني للأول . يا للمفاجأة "موشيه" هو السجان أو هو حارس سيارة السجن والمسئول عن نقل المساجين طوال الطريق من المحكمة حتى سجن "بئر السبع" . ثـم الفـصل الأخير والمشهد الأخير الأمل وذروة النبوءة حيث الإفراج عن أحدهم!

خلال الفصول الأربعة تتبادل القارئ مجموعة من المـشاهد الـسردية ، والحوارات .. على شكل التقاطع بين خطين ، وعلى القارئ الانتباه للفـصل بينهما أثناء القراءة .. خط التذكر وسرد الأحداث الماضية ، وخط الرحلـة التي بدأت بسيارة السجن في الفصل الأول وإن انتهيا في الفـصل الثالـث ، حيث تحمل حركة السيارة دلالة "الزمان" الضيق الرحـب فـي آن واحـد ، ودلالة الحركة والتتابع ، مع كونها حيلة فنية ناجحة أتاحت للروائـي مـزج القادم بالماضي والآني . ثم جاء الفصل الرابع جامعا ورابطا للعمل ومعبـأ بوجهة نظر الروائي .

تبدأ الرواية بعرض صورة كريهة وممهدة لعالم الرواية فيما بعد . كانـت قاعة المحكمة : "انتظار ، قلق ، اضطراب ، عرق ، أسلحة ، صور ، النيابة العسكرية ، روائح بشرية ، الشهود ، ازدحام الحاضرين ، دخـان يعبـق". خلال الرحلة يضيف الراوي العديد من العوالم الخاصـة ، أكـسبت العمـل ملامحه وخصوصيته . فقد كان تصوير عنبر السجن ، في صورة كريهـة ومعبرة عن قدر معاناة المسجونين : "التبول في وعاء بلاسـتك (جـردل) ، تفوح من المكان رائحة الرطوبة ، العفن ، البول ، وبقايا الخبز والبـيض .. ورائحة "غزة" القادمة عبر النافذة الضيقة والمرتفعة" .

كما كانت صورة "المخـيم" سيئة بحيث يستشعر القارىء الغمة المـشتركة بين المخيم والسجن . كما لا يقل عنهما صورة مبنى "المباحث العامة" التـي وردت في الفصل الثاني "على لسان السجين "نبيل خضر".. حيث قبض عليه وسحبت منه وثيقته أو "الهوية" لوصول معلومات إلى المباحث برغبته فـي

الهروب إلى خارج القطاع (غزة) ، ولاتهامه بالشيوعية ، وتوزيع المنشورات . كذلك بالنسبة "لنقطة التفتيش" الإسرائيلية على طول الرواية . ربما تلك الصور هي الأماكن التي غلبت حيز الرواية (محكمة — سجن — مخيم — عربة — نقط تفتيش — مبنى المباحث العامة). إلا أنه من خلال قراءة "عنوان الفصول" ، يلحظ القارئ تساوي عنصري الزمان والمكان على الفصول الأربعة . فهي على الترتيب بالعناوين التالية : "مخيم"، "عربة"، "ليل"، "شمس". ولا يخلو الأمر من الدلالة الواضحة . وإن غلب "مخيم" الحيز الأكبر من الرواية ، و"شمس" الحيز الأصغر.. فإن "العربة" كعنصر مكاني ودلالي و "الليل" كعنصر زماني موحي ومعبر لعبا دورهما الهام والفاعل بوضوح بصرف النظر عن اشتقاق عنواني الفصلين الثاني والثالث .

وعودة إلى بدء ، كيف بدت "النبوءة" في تلك الرواية ؟؟ كان من أهم ملامحها:

أولا: توظيف شخصية "موشيه" مع عرض وجهة نظر "الآخر".تعد شخصية "موشيه" في تلك الرواية من أهم الشخصيات في الرواية الفلسطينية ، لما تحمله من هموم ، وما تعبر عنه من آراء . وفي المقابل لم تحرص الكتابات الإبداعية العربية عموما على إبراز نمط تلك الشخصية ، بهذا الوضوح والإفصاح . فضلا عن كون الإبداعات العبرية أيضا لا تبرز "العربي" أو "الفلسطيني" تحديدا بالصورة الواجبة..(وهو موضوع آخر) . وأعني بالشخصية هنا ، ليست كونها خيرة أو شريرة ، بل بقدر ما تحمل من دلالة ودور في الإضافة الفنية والدلالية للعمل .يقول "موشيه" : "في ذلك الوقت .. أرغمونا على ترك العراق.. موزع أنا بين العراق وحيفا.. وما شأني بحيفا ؟ يا تعب الأقدار" .ويقول "أبو موشيه" في موضع آخر: "أنا أفهمك يا أبو عزيز ، لكني لا أفهم معنى أن تخرجني من هنا لتسكن مكاني .. أفهم أن نعيش معا ، لكن لا أفهم أن يطرد أحدنا الآخر". كما جاء الحوار المكمل لبعضه البعض

في الدلالة ، أثناء تحاور موشيه مع زميله المجند ، وهما داخل سيارة السجن للترحيل :

- إنهم يريدون دولة لهم !يرد موشيه: "لم لا.." هذا خطر علينا! يتابع موشيه - "أنت لا تفهم إلا هذه اللغة..".وتعبيرا عن مدى الفهم المتبادل بين موشيه وأبو عزيز ، يتتابع الحوار بينهما أثناء النقل وداخل سيارة السجن .. وينتهي الحوار على لسان "أبو عزيز" :"موشيه ..أنت تعرف حساسيتنا نحو الملابس العسكرية ، نحن لا نكره الإنسان .. نحن نكره أن نتحرك والبنادق خلف ظهورنا ".

ثانيا : فكرة الأجيال ودورها المتواصل من أجل التحرر والنضال .."أنا لم أخطط كي أكون البطل العجوز" ، قالها "أبو عزيز" فور اعتلاء سيارة السجن مع رفاقه الثلاثة .. وهو ما يشير إلى كون الرجل عجوزا إلى جوار شباب في عمر "عزيز" ابنه والكل متهم في قضية نضالية واحدة .. "ألست صاحب حق؟ ألم تكن ثائرا في أحداث 1936م و1948م؟ لماذا تتكر عليّ هذا الحق؟!". قالها الإبن عزيز لوالده ، كان خوف الأب على ابنه من جراء اشتراكه في العمليات النضالية مجردا من أية مشاعر غير كونه أب يحب ابنه ويخاف عليه . وإن وقفت لحظة التذكر في الرواية عند تلك المساجلة السريعة ، إلا أنها تحمل مضمون تواصل نضال الأجيال ، عن قناعة ورضا.

ثالثا : لعل شخصية "نبيل خضر" الذي أصيب في العملية النضالية الأخيرة ، وصدر ضده الحكم بسببها .. تلك الشخصية التي احتلت دور الراوي في الفصل الثاني ، تضيف بعدا آخر من صور النضال المتواصل . ذلك لأن النضال بدأ قبل احتلال قطاع غزة عام 1967م . فقد عرض "نبيل" كيف تم تعذيبه بمبنى "المباحث العامة" ، بتهمة التسلل إلى أرض الأعداء وتأسيس حزب سياسي ممنوع .إنه نضال متواصل في الأجيال ، وفي الزمان

أيضا . وقال لنفسه فور خروجه من مبنى المباحث العامة :"حينما أفرج عني .. ظللت شهورا صامتا أعيد حساباتي ، في انتظار التنظيم الذي يقود النضال ، مللت الانتظار والصمت والهدوء ..لابد من الحركة .. رغبتي في الانضمام إلى عمل منظم دفعتني للالتحاق بأحد التنظيمات الذي ظهر في أوائل الستينيات حتى حرب يونيه" .

رابعا : الخاتمة بالفصل الرابع "شمس" ، تبرز فكرة تواصل النضال عبر الأجيال ، وإن بدت شفيفة وإنسانية ، بلا صوت زاعق ولا صراخ أيديولوجي . فقد طلب أحد السجناء من المفرج عنه "محسن" أن يُقبل رضيعه أو طفله الصغير : "قبل طفلي الصغير نضال"، وقد جاء الاسم "نضال" تأكيدا دلاليا وشفيفا للمعنى البعيد باستمرارية النضال . وربما بمتابعة حسابية يصبح الطفل "نضال" هو أحد أطفال انتفاضة الحجارة فيما بعد !

خامسا : تحمل الرواية الدلالات النضالية والدعوة للصمود ، والبحث عن الأرض/الوطن..من خلال المفاهيم البسيطة في تناولها داخل العمل .

لعل مفهوم "البطل" و"البطولة" من المفاهيم المعقدة ، والتي قد يتورط بعض الكتاب في البحث عنها وإبرازها بصورة زاعقة ، فتبدو مفتعلة . لذا كان البحث في دلالة البطولة وتعريف البطل في "العربة والليل" أكثر فنية وإقناعا.. جاء المعنى مرة على لسان "أبو عزيز"، " ..فشباب مثل الورد ، مثل الورد ، يقولون عني بطلا.. أنا لم أخطط كي أكون البطل العجوز .. عزيز علمني دائما أن الشعب هو البطل ".. كما جاء المعنى في ذاكرة "موشيه" على لسان أبيه "أبراهام" زميل "أبو عزيز"،" احترس يا موشيه نريدك أن تعود سالما ، لا تهتم بالترقيات ، وما يسمى بالأعمال البطولية ، فالترقيات والبطولات هراء ، ما دامت ستكون على حساب جثث الآخرين".

سادسا : وتظل النبوءة بالأمل باقية واضحة وصريحة ، كما في مقولة "أبو عزيز" أثناء حواره مع زميله "أبراهام" ، "أنتم تلاحقوننا حتى في المخيمات ،

تصور !!عندكم يستكثرون علينا العيش في المخيمات فيريدون إخمادنا..كــل شيء يفعلونه بالقوة !! نحن نرفض المخيمات ، نريد دولتنا ، أنتم ترفضون الاعتراف بحقوقنا .. لكن سيأتي اليوم الذي تكون لنا فيه دولتنا المستقلة ."

وهكذا برز ملمح "النبوءة" في هذه الرواية الهامة مع تقنية فنية طموحة غير تقليدية ، خصوصا أنها كتبت قبل الكثير من الأحداث التي تابعناها فيما بعــد على أرض الواقع ، حيث كتبت رواية العربة والليل عام 1979م.

"البالوع"..وقائع الموت والحياة ــ أحمد يعقوب:

"البالوع" نصوص ، للكاتب "أحمد يعقوب" ، صـــدرت عــن سلــسلة "أدب الانتفاضة" ، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين عام 2003م. "إلى "نمــر"، والذي على قيد الحياة أو طفلي الذي اختطفت حياته أو أي طفل تــسميه الأم الفلسطينية "نمر" كي يتفادى موت أطفال آخرين".. إنه "الإهداء" في مقدمــة الكتاب ، وعتبة للنصوص..فكان معبرا ، وأصبح الولوج إلى العمل الفنــي على غير ضرورة للشرح أو التفسير.. فهمنا إذن أن الطفــل مــن شــهداء الانتفاضة. إذا كانت "البالوع" هي اسم شعبي يطلقه ســكان "البيــرة" علــى المدخل الشمالي للمدينة ، فهي اسم العمل كله حيث تدور الأحــداث (وقــائع الانتفاضة)..

ينقسم العمل إلى شرائح، كما ينقسم إلى أجناس أدبية مختلفة.. بداية من "في الطريق إلى البالوع" حتى النداء باسم أحد الأبطال "يا أحمد العربــي".. فــي إطار قصصي نثري ، وقصائد نثر ، خواطر ، أغنيات ، رؤى وتأملات، بل وشئ من المقال.. "صباحات لم يغنها الملك داود".. عنوان الــنص الأول ، تجربة فلسطيني أمام أحد الحواجز وما أكثرها (حوالي 700حاجز) ، إنه أمام حاجز "إيرز"، وقد خرج من أجل الشعر لحضور إحدى الندوات. كان ذلــك في اليوم الرابع للانتفاضة.

تملأه الكآبة ، ولم لا؟! ازدحام وسؤ معاملة وطقس غير موات.. بينما أعلن "شارون" آمر الوحدة 101، شبيه الماموث ، صانع المذبح: لن يستخدم إسرائيلي تصريحا للتحرك على الأرض الفلسطينية.تذكر ما قاله "أدونيس":

"نحن لا نحيا

نحن نحيا موتا يوميا أخرس"

تذكر الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم، والسينمائي العراقي "عدي رشيد"، وزملاء جنوب أفريقيا في الدراسة بأسبانيا وأحوال التفرقة العنصرية ، وحتى نساء ألمانيا في سجون النازي ، وتذكر كثيرا ، حتى تذكر الطفل الشهيد "محمد الدرة".. فقرر ألا ينجب طفلا.إحداهن من الإثيوبيات (زميلة دراسة) قالت إن الإمبراطور هيلاسيلاسى من سلالة أسد يهوذا. وتتداخل المقولات والحكايات والأشعار.. حتى خرج من الحاجز.. فتذكر "بيجن" عام 1982م عندما اقتحم المنطقة التي يراها تعيش نشوة بدايات الانتفاضة..وتذكر "سيمون بوليفار" البطل الأمريكي الجنوبي (بوليفيا) ، "كان سيمون بوليفار مثل جبل.. قاعدته شاسعة وقمته مدببة حادة.. ربما ليمرق إلى سماء المجد بسهولة أكثر".. إنها مقولة الشاعر "خوس مارتى يرثى بوليفار."الحب في زمن الانتفاضة"..

"هي الأم أو هي الوطن: يقول كل صباح

ماذا أرسل لك؟

ريحا تخترق الأسوار والجدران والحواجز عليها

تداعب شعرك!

وتضع أريج الصباح همسا وتقول:

صباح الخير يا شفيعتي الخضراء!!

ثم يختم قائلا:

"أحبك والوطن شاهدي الوحيد .

أحبك والمنفي جمر رعديد".

"وقائع الحياة والموت".. المحتل جعل من وقائع الحياة كما المسرح..

"بم.. بم.. دم

غبار.غبار..دم

بريق.. بصل..دم

كاميرات.. إطارات.. دم

ترك.. ترك (صوت الحجر)"

مشهد الذئاب والأيائل.. ومشهد الصيادين وأسراب الحجل، لن يتعارض مع مشهد مصارعة الثيران.. بينما تستمر الكتل المصنوعة من حديد وحرير وتدمدم قبالة..

صمت..

صمت..

مجرم من يخوض حربا يمكن تفاديها..

مجرم من لا يخوض حربا لا يمكن تفاديها..

"البالوع أيضا".. فكان تصوير مشهد مطاردة الجنود الإسرائيليين للأطفال الفلسطينيين، فيتذكر الراوي أو السارد مشاهد من فيلم "غاندي" وقد تحررت الهند من بعده."جريدة القبس" في 21-11-2000م : "أي قوة في العالم لن تستأصلنا من هذه الأرض، ولن تفرض علينا حلولا لا تناسبنا".وقالت الصحيفة أيضا: "الجزائر أرض فرنسية". ثم كان المشهد.. بأنفة الجنرال المهزوم أخرج النازي قلمه وسأل الجنرالات المنتشين: أين أوقع؟ قال أحدهم: اقرأ صكوك الاستسلام أولا. فقال: لماذا؟ لقد انهزمت ألمانيا؟!"البقاء على قيد الوطن".. (جملة مقاطع يغلبها الموت):

"اغتسلي بلادي خبأت لك عطر المر"

"يا موت

يا موت

يا موت: أنا لست فيلا ماموثا لتكون صيادا

يهوديا."

"يا عدوي: لن يموت من يزرع شجرة

لن يموت من يزرع كلمة

لن يموت من يزرع مضغة في رحم الوجود"

"كرنفالات التراب": إنه مشهد من مشاهد الانتفاضة حيث القناص يقتل الأطفال بنجاح!"الرماة فوق تلال "سردا" (وهى أحدى القرى الفلسطينية إلى الشمال من مدينة رام الله) ، تمكن أحدهم من إيصال قذيفته الغازية إلى جوف "مشط" الجرافة. وهذه تحسب له كقناص محترف. بينما أجانب من جنسيات أخرى تشارك أطفال الانتفاضة، وحيث الحياة مستحيلة."حديث عن الشيخ إمام".. يتابع السارد مقولات الفنان السوري "سميح شقير"..ضمن ما قاله عن الشيخ: "متواضعا مثل بحر ، أليفا كنخلة ، وشفافا كسماء.. لكن: البحر يغرق أشد الغطاسين. والنخلة يصعب على أشد المفترسين صعودها.. والسماء تطل على الرعود والبروق وهى تبتسم".

"نعم.. لا أعرف البالوع ثانية".. يوما قال وزير الخارجية الأمريكية "فوستر دالاس": "دعو قضية فلسطين للزمن.. فالكبار سوف يموتون والصغار سوف ينسون".. لكن ما حدث أن تواجد السارد مع أصدقاء من أسبانيا، وتعرضوا للممنوعات ممنوع التصوير ، ممنوع إعطاء الأسماء الصريحة ، ممنوع الوقوف طويلا أمام الجنود الإسرائيليين.. ذلك عند المدخل الشمالي لمدينة البيرة. فيما عرض لحكايات الأطفال الثلاثة..كلها تؤكد أن من الكبار من مات ، لكن الصغار لم تنس!!

"حياة القوة.. وقوة الحياة".."عندما تصل النار إلى أقوى توهجها ، تكـون تلك اللحظات في الوقت نفسه هي لحظات بداية انطفاء النار..".

"يا أحمد العربي".. "كنت المصباح

وكنا في الصب فراشة

درنا وندور!! على نول النور

نحلج خيط رداء في وطن مصطك

الأسنان؟"

وفي الختام: "يا أحمد العربي: أشكوك لحيوان الكنغر

وسأشكو لبلادي صوم بلاد.."

نحن إذن أمام عمل فني.. وليد تجربة حياتية متوهجة للانتفاضـة (حيـث البداية مع اليوم الرابع لبداياتها) ، عبر عنها شاعر في نصوص، فقد هويـة التصنيف..لا يهم. قد نفضل توصيفها بعنوانها "وقائع الموت والحياة"، فنفهم إلى أي حد يمكن أن تتفاعل التجربة المتوهجة مع السارد لتنتج عملا أدبيا.. أيا ما يكون الجنس الأدبي ، لتكن "نصوص". مزيج هي بين القصة القصيرة، الخاطرة ، الشعر، المأثورات ، والحكايات.. والنسيج الجامع بينهـا صـنع عالما خاصا.

يتميز ذاك العالم.. بالحيوية ، الرصد التـسجيلي الحـي المتفاعـل ، البعـد الأيديولوجي غير الزاعق ، الرقة الشعرية مع عنفوان التجربة وشراسـتها.. (وهنا يجدر الإشارة إلى المقدمة الهامة للدكتور عبد الخالق العف).

تعليق:

كتابان حول تجربة واحدة: "نقش على بردية العبور/ أحمد الحوتي" وعنوان جانبي "شهادة من زمن الحرب والشعر".. أما الكتاب الآخر "البـالوع أحمـد يعقوب" وعنوان جانبي "وقائع الموت والحياة".الكتابان حول تجربة واحـدة، وهى التجربة الحربية. الأول حول معارك أكتـوبر1973م والثـاني حـول

الانتفاضة.. كما أنهما لشاعرين ، فكان المزج الفني بين الشعري والسردي ، الحكائي والنظمي. الجامع المشترك بين العملين.. أن كليهما شارك في التجربة.. حاول التعبير عنها في حينها.. كما أن الشعر حرفتهما!، فخرج النص/ النصوص متماثلة في الجوهر والشكل إلى حد كبير.ربما انتبه "الحوتي" لتجربته ، فعبر عنها بقوله (ص16) "إن استلهام هذه التجارب من جانب الأدباء لم يكن عملية سهلة وبسيطة أو محكمة بقوانين الإبداع العادية".إجمالا يمكن الإشارة إلى بعض الملامح والخصائص المشتركة لكليهما:

-السرد التلقائي الصريح وأحيانا المباشر الوصف.

-تقترب روح التناول والعاطفة لتكون أقرب إلى أدب الاعتراف أحيانا.

-التصوير الحميم والعاطفي.

-النظرة الشمولية للكاتب، دون الاهتمام بالربط بين جزئيات العمل أو شخوصه ، اللهم إلا من القضية/ التجربة الجامعة.

-لا تخلو الأعمال من خصوصية "الزمكانية" لموقع الأحداث وزمانها.

-استخدام المفردات والتركيبات القريبة إلى الواقع الحياتي، خصوصا في سرد الوقائع الحية دون إصدار الأحكام أو التأملات.

-غالبا ما يعتمد الكاتب على نمط الزمن الممتد أو المستقيم ، إلا أن "البالوع" قدمت صورة أخرى على كل حل في هذا التناول .

رواية "الحواف" أنتجتها الانتفاضة الأولى:

اندلعت أحداث الانتفاضة الفلسطينية الأولى خلال عام1987م ، لم تغفلها قريحة المبدع الفلسطيني ، فكانت "الحواف" لعزت الغزاوي واحدة من أهم الروايات التي عبرت عنها بلا افتعال أو انفعال ، وعلى قدر فني وتقني يضيف إلى العطاء الأدبي في سيال الإبداع الروائي الفلسطيني. وضعنا

الروائي في تناقض ومفارقة الفن والواقع مع الـــسطور الأولـــى للروايـــة.. فالزمن الروائي غير مستقيم بل مثقوب دوما ما بين الماضي والمستقبل..مـــا بين ما كان وما يرجو أن يكون. والمكان الروائي يوحي بواقعية الأماكن التي حدد بعضها اسما ، مثل مخيم "الأمعري" ومخيم "قلنديا"..ومع ذلك فهي أماكن غير مكتظة بالناس، ويكاد العمل كله في دائرة فراغ ما. حتى الشخـــصيات ربما نلتقط منها ثلاث: "ع" الغامض الإيجابي المخلص للقضية ، "فؤاد" الذي سجن لسنة ثم تحول عن القضية ، و"إبراهيم فوزي" المطارد وسجن بـــسبب حب الوطن. ومع الثلاثة لم يبدُ لنا الروائي منحازا بصوت عال إلا إلـــيهم ، وإن بدا فنيا تحيزه ل"فوزي" الذي بقي مخلصا للقضية.

اندلعت الانتفاضة ولم يخبرنا الراوي .. متى ولا كيف؟ فقط هناك من يعمل من أجل..؟. فقد بعث "ع" برسالة:"بسم الله الرحمن الرحيم. أخي فؤاد، مـــاذا لو شربنا القهوة في بيت رأفت؟ مساء. 25-1-88 – أخوك "(ص8).إنه عمل سري إذن، كما أننا على حافة أحداث لها ماضي ومستقبل. وهكذا يبدو بنـــاء الرواية..بسيطا ومركبا في آن واحد. ويكفي الإشارة إلى أن "ع" لم نتعـــرف عليه اسما أو رسما طوال الرواية حتى نهايتها. لتبقى الشخصية الأمل الباقي والمعبر عن رغبة الشعب الفلسطيني في العمل والإيجاب. أما "فؤاد" المناضل القديم (صفة القديم من القارئ لأننا علمنا أنه ناضل وحاول ، لكنه سقط بعد أول عثرة، وقد حكم عليه بالسجن لمدة سنة). خرج من السجن وهو مـــؤمن بنفسه ومصالحه الشخصية قبل أي شئ آخر. يقول:" يجـــب أن تلغـــي مـــن قاموسك كل تبادل للعاطفة، هناك تبادل مصالح وتزاحم في العلاقات." ص(47).

وهناك "إبراهيم فوزي" الشخصية الواضحة والتي لا يمكن الاستغناء عنها في الأعمال الفنية للتعبير عن "المقاومة" ، الهام في الأمر أن تكون طبيعيـــة، وألا تفرض وجودها على وجود الشخصيات الأخرى، مهما كانت الأخـــرى فيها من سلبيات.. أليست هي الحقيقة والفن معا. إنه صادق ومخلص حتى أن

شهادته في المحكمة هي التي خففت الحكم على "فؤاد" بسنة واحدة، وحكم عليه بثمانية سنوات.. بل مات في نهاية الرواية.

وتتعدد في الرواية ما يمكن أن نطلق عليه بالموتيفات الموحية والتي تشي ولا تخبر، بالإضافة إلى الجماليات الفنية المضافة للعمل. ففي ترحال الشخصيات في الزمان والمكان يصف مسجد "المجدل" وهو المسجد الذي بناه الأجداد وعاشوا حوله وصلوا فيه ، ثم أصبح مهجورا لأنه تحت سطوة الاحتلال الغاشم الآن . يصف لوحة على بابه مكتوب عليها بالخط الكوفي: "بسم الله الرحمن الرحيم"ولوحة "بنيت على نفقة الحاج عبد النبي سعدات سنة1941م" (ص138)هكذا كان هنا الأجداد. وربما من أجل ذلك يهون كل شئ، وإلا لماذا كتب "فوزي" لصديقه فور خروجه من السجن "خرج أخيرا إذن ، وكنت أتخيلها ثماني سنوات طويلة لن تنتهي."

ماذا حدث قبل عودة منصور اللداوي؟ـ غريب عسقلاني:

رواية "عودة منصور اللداوي" للروائي "غريب عسقلاني" كتبت في عام 2001م ، ونشرت في 2002م عن "بيت الشعر"- فلسطين. حاول الروائي فيها أن يقول كلمته من خلال تجربة جيله ، ما حاولت الرواية رصده هو التالي: هناك جيل يقع بين الصبا والشباب وشرخ الرجولة يعاني من الشتات، لم ترحمه الأحداث السياسية على الأرض ، خلال رحلة الكفاح الفلسطيني بعد 1948م ، وبرزت معاناته بعد 1967م، وعندما عاد جاء رافضا المعطى السياسي ، مع شعور بالمرارة.. أي إنجاز أنجزه هذا الجيل؟؟ يشعر بالإحباط لأنه لم يضف.. لعله أضاف ولم يكرم.. لعله كرم ولكنه خارج الوطن ، محروما منه.. ومن نجح وعاد مراقب ومقيد ، يعيش الشتات خارج وطنه وداخله.

ترى هل عثرت على ضالتي في هذا العمل الروائي ، لأجيب على السؤال الذي بدأت به سلسلة القراءات حول "الانتفاضة" ، بينما لم أشر إلى الانتفاضة خلال السطور السابقة كاملة؟

جاءت "الانتفاضة" الأولى.. في تلك الرواية مدسوسة على أحداثها، والدس لا يحمل الافتعال أو الإقحام، بقدر ما يحمل دلالة "التهميش" أو لنقل التخفي، وكأنها ليست جوهر الرؤية في العمل الفني.. ربما بسبب ما كان يتعرض له أصحاب القلم من اضطهاد على قوة الاحتلال. إذن نحن مع رواية فلسطينية، لروائي من قطاع غزة ، يرصد تجربة جيل تفتحت حواسه وأحلامه وانتكست مع نكسة 1967م ، ولعب دورا / دوره الجاد في تاريخ التجربة الحربية الفلسطينية، بشروط زمانها ومكانها..وكم من الشروط الزمنية والمكانية فيك يا قضية المصير العربي؟

قراءة للفصل الأخير فقط!!

يحمل هذا الفصل "عودة منصور اللداوي" عنوان الرواية نفسها.. ترى هل لهذا السبب اخترته للقراءة، لعلي أصل إلى موجز ما أوجزه الروائي؟بضمير المتكلم يقول ابن منصور اللداوي ، وتدور جملة أحداث الفصل الأخير: "وأخيرا التقيت "بهنية العالم" يا أبي".. (هنية هي صديقة "سعاد" حبيبة الأب "منصور"خلال فترة الدراسة بالمرحلة الثانوية.. أشركتها في تنظيم المقاومة، وتعرفت سعاد على منصور من خلال التنظيم.) لم يتقبل أحد دعوة هنية لاستقبال "رياض" بأي ترحاب ، ومع ذلك كانت الدعوة للمشاركة في حفل زواج أو خطوبة، وقد أخبروه أن الفلسطينيين في الشتات ينسون التقاليد، لذا يلزم أن يحضر رياض الحفل (حيث يقابل هنية) أيضا.أستقبله كبيرهم في بيت الشناوي قائلا:

"سبحان الله، دمك على دمه ، ولو إنك مش واخد من ملامحه""الحمد لله، ننتظر الموافقة على دخوله"..(منصور اللداوي لم يصل بعد ، وفي انتظار

التصريح له والسماح بالدخول إلى أرض الوطن)."سناء" تقف إلـــى جانـــب خالد، وهنية بين صبحي وأبي جعفر ، هنية عروس بكامل زينتهـــا، ثوبهـــا الأبيض يضفي عليها سحرا ووقارا.." لقد حضر ابن منصور الخطبة بينمـــا التعليق والتلميح والصورة ل"هنية" (المناضلة القديمة- الفقيرة- رفيقة نضال منصور الأب الذي لم يعد).

يتذكر "رياض" أمه "نوال المفلح" التي ماتت أو قتلت بعد انفصالها عن أبيه "منصور" وزواجها من أحد الأطباء الأجانب "نرويجي" في مخـــيم "شـــاتيلا" بلبنان... فيما بدا "الدبش" واقفا إلى جوار امرأته البيـــضاء "هنيـــة" "ولـــيس منصورا، أبي" ، "رقص الدبش مع هنية ، ورقصت رضوى مع الـــشناوي، ورقص مسعود مع سعاد الهندي، ورقص خالد مع سناء، ودفعتني أم طارق إلى الحلبة، تعثرت فتلقفتني هيفاء ، تعثرت ورقصت وكـــأني علـــى شـــوق وانتظار من يلعب معي ويراقصني". إذن كل الشخـــصيات المحوريـــة فـــي الرواية (تقريبا) ترقص فرحة.." وسعنا الحلبة لهنية وسعاد ، رقصنا وكـــأن الرقص لهما وحدهما.." سقطت هنية من شدة التعب والفرحة ، عندما اقترب "رياض" ابن منصور منها.."همست بصوت لم يسمعه سواي.

- "أنت ابني".

"كانت صادقة ، وتمنيت لو كنت ولدها". ثم عاد إلى مجلسه ، يتابع قرص الشمس الذاهب إلى غروب... وفي خاتمة موجزة كتب الروائـــي مخاطبـــا "منصور" على لسان ابنه:" الأيام تمر يا أبي ، ولا خبر عن رقمك الـــوطني، لم تجد مراجعاتي ولا تدخلات أبي طارق لدى الارتباط العسكري والمدني.. ومكتب الرئيس ، وأخيرا قرر أن يرحمني:

-يا رياض موضوع أبوك صعب ، ملفه عند الإسرائيليين، وعليه تهم قتـــل اليهود، علشان هيك صعب يوافقوا على رجوعه في هذه المرحلة..

هل رحمني أم قتلني أبو طارق.. قلت:

-حصلت على هويته قبل أن يغادر الوطن.

-احتفظ بها، مصيره يرجع"..

هكذا انتهى الفصل الأخير من الرواية التي تقع في أحد عشر فصلا.. لم يعد "منصور اللداوي" ، وربما لن يعود!إنه منصور الذي أمضى أيامه وشبابه يكافح، ويقاتل حتى هرب من الأحكام الغيبية عليه ومن الهلاك، فلما ذهب إلى لبنان ثم إلى تونس ، وقد تزوج من "نوال" التي – ربما تكون قد خانته- وإن أنجبت للراوي "رياض" راوي الرواية ، وقد بدأت الرواية به وانتهت.. على نبوءة عودة الأب منصور ومحاولات الجميع من أجل تلك العودة / الأمل.لكن السؤال الذي يطرح نفسه أمام القارىء فور الانتهاء من الفصل الأخير ثم السطر الأخير:

ماذا عن هنية التي بدت عروسا أجمل من العروس الشابة!، وقد همست وباحت بالكثير للراوي، باحت بما لم يسمعه غيره..تمنت لو كان ابنها، بل قالتها صريحة واضحة "أنت ابني" وتمنى رياض أن يكون كذلك. وقبل هذا كله ظلت ترقص حتى سقطت فرحا..؟ترى من "منصور" ومن "هنية"؟؟

منصور اللداوي هو "منصور علي محمود اللداوي" ، تزوج من "نوال جمعة" سورية المولد ، وأنجب "رياض منصور اللداوي" الذي بدأت به الرواية قادما من تونس ، سعيا لأن يعيش بين أهله، وكي يحصل على تصريح دخول لأبيه "منصور" كي يعود من الشتات إلى وطنه بعد سنوات طويلة قضاها في لبنان وتونس.لم نتعرف على "منصور إلا في نهاية الفصل الرابع: (ص9) ثم (ص89) "يومين وعادت "مها" بحكايات علقت في رأس خالها (رياض منصور اللداوي) العائد من تونس، عن منصور اللداوي الذي أخذت الشظية مشط قدمه فأورثته عرجا ظاهرا فاستقر في بيروت وتزوج الممرضة التي سهرت عليه في مستشفي عكا، وعن رحيله مع القوات إلى تونس مع

زوجة أخرى ، وعن غارة حمام الشط، ووقوعه في الغيبوبة عدة أشهر صحا، وقد فقد الذاكرة..."

بدأ منصور يتذكر ببطء ، وعلى مدار أحداث الرواية. بينما خرج "رياض" من حجرة الفحص الإسرائيلية ، استقبله شقيقه غير الشقيق (غسان هو ابن سعدية التي ربت رياض بعد موت أمه أو اختفائها المفاجئ.. فكانت في مكانة أمه، وابنها شقيقه).. ذهبا إلى أمهما "سعدية" التي استقبلت "رياض" باكية تسأله في شوق عن أبيه "منصور".. تسأله هكذا: "منصور بعده تايه، وبيدور على الطريق.. مصيره يوم يرجع" (ص14).فلما تابع "رياض" مقابلة الأهل والجيران ، كانت "سعاد الهندي".. لنعلم إنها المرأة التي كان يجب أن تكون أما لرياض.. نتعرف على قصة حب منصور وسعاد.. أحبها بقوة وشجاعة، أما غريمه "مسعود" فقد أحبها برومانسية وعاطفة قوية.. في النهاية انتصر مسعود وتزوج من سعاد (أنجب منها هيفاء).بينما تابع منصور رحلته في الكفاح والحياة، وتزوج من "نوال" في "شاتيلا" بلبنان، ولأنه بعيد عن الأهل والدار والوطن، سنت أمه سنة تتبع: (ص48).

"وفجأة شغل الناس في المخيم من جديد، عندما طافت أمه تعزم إلى عرسه وتلح وتهدد بمقاطعة كل من يتأخر عن تلبية الدعوة.منصور حكاية في المخيم.. الفرح يطبل ويزمر، والمعازيم من كل صوب وحدب، لا عريس ولا عروس ، يا منصور أرسلت خبر عرسك هناك فأقامت أمك العرس في غزة، وجعلته سنة تتبع ، ابتكرت عروسا وعريسا بالإنابة ، العروس طفلة من العائلة والعريس..".

وتابع "رياض" حياته في قطاع غزة ، وواصل الاتصال بشقيقه "غسان" بالضفة. وكان الحديث حول "منصور" وعنه موضوعا مشتركا، وكاشفا:(ص99)."..غسان يسألني:

–بعدك ما سمعت صوت أبيك يا رياض..

لم يعد غسان يقول صوت أبينا، تعرف على أبيه وانتسب. منصور أبي أنا، وزوج أمك ، وأنا وأنت تواطأنا أن لا نقترب من حـــد الاشـــتعال حتـــى لا نحترق.

-حتى الآن باعرف أخباره من "ديما" وأمك سعدية.

وسعدية أمك أنت وزوجة أبي هكذا قسمت الأمور بيننا، غسان يتنهد.

-أنا قلقان يا رياض ، أمي كل مرة بتقول منصور دخل الصمت ولكن حالته تتحسن.. نفسي أسمع صوته".

أما "هنية" زميلة الدراسة (المرحلة الثانوية) لسعاد الهندي ، تعرفنا عليهـــا في فصل على لسان "سعاد". كانت ضمن التنظيم ومقاومة الاحتلال، وجندت "سعاد" للعمل في مجموعة "منصور".. وقد ظنت أن الانضمام حيلة كي تكون بالقرب من منصور !كافحت، وقبض عليها حتى سجنت، لتخرج من الـــسجن وتتزوج من "الدبش" المشكوك في ذمته ، ربما يتاجر في السيارات المسروقة وقطع الغيار. ذهبت إلى حفل زفاف "منصور" الوهمي، في أبهـــى زينتهـــا، وبكت على صدر أمه:(111).

"-ليش ما عزمتيني مثل الناس يا خالة.

أطلقت هنية العالم الحكايات من رمادها، رقصت وسحبتني معها إلى الحلقة، تمنعت ولكني سرعان ما اندمجت، وكأن الرقص حاجة لتفريغ مـــا اختزنـــه القلب وصام عليه الصدر، وكأن "منصور" لم يغادرنا، لهثـــت الـــدماء فـــي عروقنا، رشفنا رغبات راودتنا في أيام خوال ولكل منا رفة حلـــم.."قالتهـــا "سعاد" وفهمنا ما كان "منصور" إلا حلما للجميع!فلما علمت "هنيـــة" بمقـــدم "رياض" ابن منصور، باحت بما أخفته منذ سنوات: (ص129-130)

"قالت هنية وعلى غير توقع:

-أنا ما أحببت واحدا في الدنيا مثل منصور، وما انكسرت من واحد مثل ما انكسرت منه.

هنية دلقت ما صامت عليه.. تحدثت وكأن واحدا لم يسمعها من قبل، عذاباتها في السجن وكأنها خارجة للتو من الزنازين، اعترافاتها بأنها حبيبته وخطيبته وعشيقته أيضا "منصور لي، لا أعرف عنه غير ذلك".سجنت بتهمة التستر عامين......

-منصور قضيتي وفضيحتي يا سعاد..... صبحي الدبش الوحيد الذي وقف إلى جانبي، لم يقترب يوما من سيرة منصور إلى أن فاجأني يوما وبدون مقدمات:

-تتزوجيني يا هنيه؟

أجهشت بالبكاء فلم يتمالك نفسه، سالت دمعته. قال:

-اسألي نفسك يا هنية ليش صبحي الدبش ما تزوج؟!"

يعود ضمير المتكلم للابن "رياض" ، فنعرف تفصيلات أخرى حول علاقة "منصور" و"هنية"، يصيح في بداية الفصل التاسع "العودة عن النكوص":(ص175- 176 -177) "يا أبي أبحث عنك قبل أن تكون أبي...تجهدني الأسئلة ، أهرب إلى البحر... يسمعني "حاتم السدودي"، يلتقط شواردي ، يفاجئني بأزمنة وأمكنة وأناس ذهبوا وآخرين مازالوا أحياء...ألقي ما توصلت إليه في حجر أبي يوسف، يسعفني أحيانا ويلتزم الصمت في معظم الأحيان، يلتقط دموعي في عين فؤادي، فيأخذني إلى حضنه..

-مالك أنت وخطوات ماتت...

أطلب منه تفسيرا عن تحاشي عمتي زاهية الاقتراب من سيرة هنية العالم، يختصر الأمر ويغلقه:

-هنية امرأة من ذهب ، قلبها لا يعرف الحقد..

-خذني إليها...

-لا تفتح جرحا قديما.. كفاية اللي جرى لها من أبوك.. أي حق يا منصور اللداوي لهنية العالم في رقبتك؟!

البارحة أخبرني الطبيب وكان منتصرا ، وخط الهاتف الدولي امتثل لانتصاره خشوعا وصفاء، وصلني صوته وكأنه معي.. قرر الطبيب يقينا بأنك اجتزت حالة النكوص ، واستنفدت فرص الهروب، ولم يعد الصمت ملاذا إليه وبخاصة بعد وصولي إلى الوطن.."

إننا إذن أمام علاقة تتكشف ، بين منصور وهنية.. تلك التي تبدو وكأنها خفية، وغير بارزة في مسار رياض الابن ، تتكشف سرا وعفوا.. وأظنها أهم علاقة لمنصور بين أهله وناسه.. إنها علاقة مناضل ومناضلة، تغلفها الحيطة والحرص كأي عمل سري.

ما الحكاية إذن؟الرواية تقص عن "منصور".. غائب / مناضل/ يشكو العلل، ولن يعود إلى وطنه، سبقه الابن "رياض" إلى أهله ، يرجو أن يبشرنا بعودة "منصور".. لكن آخر جملة في الرواية ، في حوار بين "رياض" وأحدهم ، حول بطاقة الهوية الخاصة ب"منصور" ، فيخبره ، ويطلب من الابن قائلا: "احتفظ بها ، مصيره يرجع. ."إنها جملة وحيدة أوجزت قضية جيل من رجال المقاومة الفلسطينية ، خلال رحلتها الكفاحية التي بدأت.

تتميز الرواية بقدر وافر من الفنية والتقنية ، والبعد عن الصوت الصارخ والزاعق ، مع أهميتها إلى جوار روايات أخرى ، في رسم خريطة النضال الفلسطيني خلال العقود الثلاثة الماضية. ربما يجدر الإشارة إلى أن "الانتفاضة" وهي الانتفاضة الأولى خلال زمن الرواية ، لم تأت أحداثها في العمل متعسفة أو مقحمة.. جاءت أحداثها منطقية ومشاهدها إضافة إلى الدلالات التي حرص عليها الروائي.

جذور الهوية الفلسطينية ، في "بيت من ورق":

"بيت من ورق" رواية قصيرة للروائي "رافع يحيى". ولد عام 1966م، عاش في قريته "اكسال" وكتب القصة القصيرة والرواية وقصص الأطفال،

ينتمي إلى عرب إسرائيل ، وهو ما يعطي لتلك الرواية نكهة خاصة ، وربما مثيرة إلى حد التساؤل حول الكثير من المحاور.. ربما في مجملهـا ، أيـن "فلسطين" في كتابات "عرب إسرائيل"؟؟

نشرت الرواية عام 1996م ، وهى بذلك تعبر عن وجهة نظر أحد عـرب إسرائيل ، لم يشهد عام النكبة ، ربما تفتحت عيناه مع أحداث معـارك عـام 1973م ، يعيش حتى تاريخ تجربته الخاصة/العامة والتي قد تعبر عن 20% من سكان إسرائيل اليوم ، أو حتى تعبر عن ذاته..لا يهم ، لن نصدر أحكاما ، يكفينا العمل ودلالاته.

تبدأ الرواية بالتساؤل الساخر: هل الحياة كاريكاتير واحد كبيـر؟ يقولهـا "عيسى" بائع البطاطا والمناضل القديم في معسكرات اللاجئين علـى الأرض اللبنانية.ليبدأ العمل.. "اليوم الجمعة.يجب أن أذهب إلى العيادة لإجراء فحص طبي.الذهاب إلى العيادة يغضبني.." (ص7) . "لقد قطعت على نفسي أن أكون وردة "جورية" متفتحة دوما..تعجبني عبقرية الورود"،" الحر شديد في الغرفة (الضيقة التي يعيش فيها مع زوجته آيات وأولاده الـشاب بـراق والطفلـة نيروز) ، أريد بيتا من ثلاث غرف وصالون نستقبل فيه الضيوف ومطـبخ ومرحاض" (ص9). "ماذا سأفعل؟ هل بيع البطاطا سيغير وضعنا؟" (ص9). الحل المتاح أو الممكن "سأذهب إلى البحر.. سأختار طريقا خاليا مـن ناطحـات السحاب والفيلات. ما الذي يميز البيت عن القبر أو السجن؟؟ لا شئ.. نفس مواد البناء والصانع هو الإنسان." (ص10).يبدو حلا رومانسيا أو حتى هروبيا، حل يعبر عن قلة الحيلة والحيرة.

"قال جدي ذات مرة، البحار الحقيقي هو الذي يفضل الموت وهو يـصارع "القرش" أو أي عارض مفاجىء في البحر، على أن يراه الناس عائـدا إلـى الشاطىء يرتجف من الخوف فوق قاربه" (ص10). ليعلق عيسى "كنت أجلـس أمامك كما يجلس الباحث أمام عبقرية الحضارة". وهى رؤية تاريخية تبحث

عن الجذور. يتابع عيسى شكوله من ابنه براق أو (الحفيد الذي يبدو طموحا، وكل طموحه أن يركب سيارة فولفو) (ص11).

لنتوقف أمام تعليق "عيسى الهام: "يتصرف -يعني الابن- وكأنه مقطوع من شجرة الأجداد"، مع ملاحظة أن الابن بلغ العشرين، "إنه لا يختلف في سلوكه عن أبناء جيله" (ص12). إننا إذن أمام جيل مختلف في رؤيته وطموحاته ، وهو ما يعد رصدا وتسجيلا هاما، خصوصا لو أدخلنا الرواية ضمن دراسات سوسيولوجيا الأدب،وكما تابع "عيسى" رأيه في ابنه، تابع مع طفلته "نيروز"، "صرت أخاف على كل بنات البلد، إنهن يركضن نحو (الزيف) ، كما يركض جناح الفراش إلى لهيب النار.. ألا تدري كل هذه الأجيال أن كل ما يأتي به الغرب مثل القبر، من الخارج رخام ومن الداخل سخام"(ص12).أما وقد قرر "عيسى" الذهاب إلى السوق حيث يبيع البطاطا، لتنحو الرواية منحى آخر، يكشف عن جوانب لم نكن نعرفها.

يبدأ بحواره مع زميلة الشقاء "أم وديع"، المرأة التي أوجزت الفترة السابقة في جملة:"الدنيا أخذت منك شبابك، وأخذت مني "وديع" (ص13). فلما بحث عن السبب وجده "الاستعمار". أرجعه إلى مصطلح يبدو الآن غامضا وان كشف عن قدر التورية التي قد يعنيها "عيسى"،"السبب هو الاستعمار.. طالع نازل فينا مثل المنشار، الله يخرب بيته.. هو الذي يسرق خيراتنا بجشع ، إنه يركبنا" (ص14).

لكن ترى ما هي مأساة "عيسى"؟ عادت أم وديع وأوجزتها بقولها: "أنت الذي علم الناس كيف يقفوا كالمتاريس في وجه الظلم. حرمت من شبابك، وفي الآخر رموك في الشارع تبيع بطاطا" (ص15).. "تسيوك.. نسيوك ياعيني" (ص16).

وفي منحى آخر من الرواية، يتذكر "عيسى" أن اليوم هو عيد ميلاد زوجته المخلصة الصابرة ، التي تعمل في مصنع الخياطة. إنها تحب الورد، لكن

"ثمن الورد مقابل الخبز" (ص21). لكنه قرر "فضلت الورد على الخبز" (ص21).حمل الورد في يده، وحمل القلق في صدره، أمام المخبز كانت السيارة تمتلىء بالخبز، وهو في حاجة إلى ثلاثة أرغفة..لزوجته ولابنه وابنته، لكنه لم يسرق من قبل.."يا عيسى أنت أكلت فئران في أيام الحصار، لكنك لم تمد يدك ل.."(ص23)"أستحرق شرف خمسين عاما قضيتها في الكفاح " (ص23).أخيرا سرق الخبز، ثلاثة أرغفة فقط، ليس له، بل لزوجته وأولاده.."يكفيني ثلاثة أرغفة..أنا سأظل جائعا ..لا أصدق نفسي. لقد تناولت ثلاثة أرغفة" (ص24)في المقابل كانت زوجته تمارس البطولة والمقاومة الحياتية اليومية ، عندما قالت لزوجها عيسى "أنا لست حزينة لكني أتمنى أن أشق لحم الليل بحراب أحلامي حتى أرى ما أريد" ، فسألها عيسى "وماذا تريدين؟"قالت: "أريد الشمس والخبز والحرية" (ص26).وطال الحوار بينهما، في موضع لاحق قالت لزوجها عيسى: "لا تستهن بنفسك.. أنت صخرة أصلب من كل الصخور ".. "عندما يكون البيت خاويا من الخبز تفتح أبوابه أمام كل ما هو متمرد على النواميس البشرية" (ص27).ومع ذلك شعر الزوج أنه لم يجلب السعادة بالأرغفة التي سرقها.."أدركت أن فكرتي لم تجلب السعادة لآيات..فتناولت قلما من علبة ألوان "نيروز" وكتبت على الزجاجة (الورد باق في بيتنا)..فضحكت الزوجة. (ص29)..هكذا تبدو الأحلام في حياة جديدة، سعيدة وكريمة، نجدها في كلمات تكتب. أما وقد استيقظت الطفلة في الصباح، توقظ الأب كي يرسم لها جملا ، وهي لا تعرفه ، بل سمعت عنه!..لأنه يشبه أباها في صبره ، يفضل الأب أن يطلب منها طلبا آخر: "ارسمي بيتا كبيرا وحوله أزهار وأمامه ساحة كبيرة ووراءه برج حمام، وبركة صغيرة يسبح فيها البط." (ص30).. ولعل تلك الوقفة السريعة بين الأب المكافح القديم والابنة توجز وتفسر عنوان الرواية "بيت على الورق". ثانية تبدو الحياة مجموعة كلمات أو حتى رسامات، لا أكثر.

في منحى إنساني انتقل الروائي إلى جانب خفي لم يكشف عنه من قبـل، وإن وظفه لتفسير وشرح ما أوجزه سلفا. لقد قابل الصديق القديم "إبراهيم"، أوضح له معاناته وشظف العيش الذي يعيشه.. إلا أن إبراهيم استقبله بخبـر طريف دال، أن الجميع يؤكدون نبأ موت "عيسى"!!

تلك الشائعة التي أطلقها "نديم" رفيق الكفاح والخندق يوما ما!!.."أنا ونـديم حاربنا في خندق واحد" (ص33). اللافت للانتباه أن صاحب الإشاعة هو رفيق الحصار والكفاح ، ولا يخلو الموقف من الدلالة الواضحة ، تأكيدا للإحساس بالغياب وقلة الحيلة.

بدت القضية صعبة ، أن يثبت أنه مازال حيا أمرا شاقا وربما مـستحيلا، حتى أنه قال: "لإثبات أنني حي مسألة صعبة تحتاج إلى كامب ديفيد أو أوسلو ".. لكن إبراهيم هون عليه واقتـرح أن يظـل عيـسى يـصيح بطاطـا.. بطاطا..فعلق عيسى:"يعني أكون أو لا أكون مـسألة مرتبطـة بالبطاطـا؟" (ص34). عندما ذكرت تلك الكلمات "كامب ديفيد وأوسلو" علق إبراهيم سـاخرا: "الناس نسيت هذه الكلمة ولا تعرف معناها" (ص35). عاد وأوجز تجربة صديقه "عيسى":" يا خسارة يا عيسى..كل أحلامك طارت بالهواء كالفقاعات" (ص35) .هل نتساءل حول دلالات بعيدة تربط بين واقعة إشاعة موت عيسى، وحقيقة عجز اتفاقيات "كامب ديفيد وأوسلو" في حل المشكلة الفلسطينية..ربما.

وقد عرض الروائي لجملة علاقاته مع أصدقائه القدامى والجـدد. "نـادر" الشاب الذكي والحاصل على المؤهل العالي ناقم على الأوضاع من حولـه.. "إن هذه حبر على ورق ولا يناسبها اسم صحيفة" (ص37). ولا يجـد عمـلا، فيقول: "لقد صرت أؤمن أنه في الليل كل البقرات سوداء" (ص39). وقرر العمل في البحر صيادا.

هاهو ذا "عبد الكريم البيروني" الشاب الأسطورة، الذي يبدو ناعم الملامح، ولا يشي بما فعله فيما بعد، حيث تحولت جثته إلى أشـلاء وطعـام شـهي

لقطعان النمل. بدوره حصل على المؤهل ولم يجد عملا، فتطوع جنديا في الجيش.لم يكن "براق" الابن الصامت الغامض سوى نموذج آخر لضياع الأجيال الجديدة..فهو كتوم لا أحد يعرف عما يفكر، ويبدو كأنه يعيش في الخفاء..كل ما حرص عليه الأب (عيسى) أن قال له محذرا: "فقط لا تقم بعمل يجعلني أشعر بالعار لأني أبوك!" (ص46). وجاء الرد أو السلوك الذي يخشاه الأب في (ص78) حيث "قطعت الصدمة لساننا". ترى ما هي الصدمة ولماذا؟؟

بدأت الصدمة عندما زار "عيسى" صديقه المقاول "أبوعلي"، طلب المقاول أن يتعلم عيسى حرفة النقاشة، وأن يعمل معه، فالعمل الجديد أكثر ربحية.."صاحب صنعة مالك قلعة" (ص53) وبدأت علاقة جديدة بينهما.بدأ العمل في إحدى الفيلات ، "كانت بانتظاره فتاة في العشرين من عمرها، جميلة ، تخيلو لو كان هذا البيت لي" (ص57) .إنها مهاجرة، شابة، وجودها له مفعول غامض في حضور "عيسى" ، "لن تعينني الأبجدية على وصف الوخزات التي يوجهها إلى موقعها"(ص60) .أما وقد تحدثت الجميلة عن البحر ورغبة "أبوعلي" للجلوس إليه، خشي أن يتحدث أبوعلي عن الخنادق.ابتسمت وقالت (بالعبرية) المكسرة: "أنت تعمل دائما مع أبوعلي، أبوعلي هذا يحب البحر..مجنون.. دائما يجلس أمام الموج (ص63). فيما بعد أحضر عيسى زوجته كي ترى الشقة التي يعمل في طلائها، فعاش مع آيات لحظات من وراء ستائر الدنيا".

ما حدث أذهل الجميع..عيسى والقارىء معا..! توالى غياب الولد "براق"، فلما سألوه ، قال "لا تقلقوا سأعود متأخرا الليلة سأمضيها عند صديقي" (ص70).لكن ، "صوفيا تريد الزواج من عربي (أي المهاجرة الشابة ترغب فيه) (ص71). فقال عيسى:"هناك من أخبرها بأن العرب قد يقتلونها إذا علموا بأنها ستخطف ابنهم!!!

هل لنا أن نتساءل عن جذور الهوية الفلسطينية؟نعم، كشفها وفعلها الروائي من خلال.. تاريخ حياة "عيسى" النضالي ، وعلى الرغم من كل الصعوبات مازال يناضل من أجل حياة أفضل.تاريخ "الجد"..رؤيته وأفكاره ، بل وكينونته التاريخية، في مقابل الحفيد "براق" الطموح الذي يبدو وكأنه بلا جذور..فشعر الأب أن ابنه تائه ، بل وعبر عن خوفه من ضياع مستقبل الطفلة "نيروز".

لعل الزوجة "آيات"..في تحملها وصبرها، سواء بالعمل في مصنع الخياطة، وفي رعايتها لبيتها، يعد تأكيدا لصمودها. تتعدد الوقائع والأحداث داخل العمل لإبراز هذا الدور المقاومي ، المتمسك بكل القيم الأساسية، التي هي من جذور الأجداد على الأرض الفلسطينية.أما الأصدقاء "نادر"، و"عبد الكريم"، فلكل منهم حكاية تعبر عن الصمود العملي حتى الموت لتأكيد معنى التمسك بالقيم العليا. وإن بدا "إبراهيم" أو"أبوعلي" على الصورة المناقضة إلى حد ما لإبراز الفكرة الأصيلة، ولأن الرواية لا تغفل الواقع والوقائع.

ثم الأطفال الأبناء.."نيروز" ترى في والدها صبرا وصمودا كما في "الجمل" الذي لا تعرفه تماما.. و"براق" وهو ذروة التمرد على مفاهيم الأب، يبدو غامضا..شاردا..ولعله غير سعيد بتعرفه على المهاجرة الشابة التي ترغب في الزواج من عربي.. لكنه سائر على طريقه. ولا يفوتنا الإشارة إلى دلالة الاسم للأطفال "نيروز وبراق" ، إن كان الاسم من صنع الأب "عيسى" المناضل القديم، فهم كبشر من صنع واقعهما ومحصلة أفكار عدة ومؤثرات مختلفة. تعد الرواية على قصرها..دالة ، بل وهامة لكل من يهمه رصد وجهات النظر والأفكار العامة والخاصة في الأدب الفلسطيني المقاوم.. خصوصا في جنس الرواية.

الرواية الفلسطينية و الأرض "قدرون" أحمد رفيق عوض":

"الأرض"..ذلك التعين المكاني لجماعة من الناس، بتفاعلهـا مـع الإنـسان تكتسي الأرض مزيداً من الدلالات والمعاني. تارة يسقطها الإنسان، وتـارة تسقطها الأحداث.. في علاقة تبادلية. فالسؤال المطروح دوما: مـاذا حـدث وأين؟؟!

بالتالي تفيض الأرض بالقيم ، حتى أنها تتجاوز القيم المادية، لتأخذ طابعـا روحيا وجدانيا.. فترتبط بقيم الكرامة والشرف وغيرهما ، بحيـث تـصبح غائرة في الذات الفردية والجماعية ، وبالتالي تعلو وترتفـع قـيم الوطنيـة والقومية.

كما يعد "الانتماء" الذي هو من أكثر المصطلحات ذات الـصلة بموضـوع "الأرض" وعلاقتها ب"المقاومة" وأدبها. نظرا للدلالة المباشرة الشائعة، وهو ما يعني الوفاء/ الإخلاص/ المشاركة الإيجابية..الـخ، وكلهـا ذات مغـزى أخلاقي. وقد بات المصطلح ذات دلالة سياسية وثقافية..فليس أقل من التوقف مع المصطلح والبحث عن تلك العلاقة الهامة والمباشرة حين البحـث فـي موضوع علاقة "الأرض" بالمنتج الذهني (الإبداع الفني) و"المنـتج المـادي" (السلوك المباشر للفرد مع الآخر والوطن)...

بداية الانتماء هو ما نستنتجه من سلوك الفرد تجاه جماعته، والعمل علـى تقديم التضحية الواجبة تجاهها إن لزم الأمر. بقدر ما هو منتج، هـو دافـع أيضا ومعزز لسلوك الفداء والتضحية، عندما يرسخ في وجدان الأفراد. لـذا فهو قوة دافعة في ذاته ، أي أن الانتماء روح وسـلوك لا ينفـصلان. كمـا يتصف الانتماء ب"الالتزام" ، حيث تصبح مفاهيم الجماعة وقوانينها وقيمهـا هي المعيار الذي يلزم به المرء نفسه ، دون "إجبـار"و" المنتمـي" يكتـسب صفات خاصة، تبدو في المواقف الصعبة، تلك المواقف التـي قـد تـضر جماعته، أكثر مما تضر الفرد نفسه. لذا يبدو المنتمي وكأنـه تخلـص مـن الذاتية الفردية الأنانية، بل وبالسلوك المنتمي نحو الجماعـة، يبـدو شـعور

المنتمي ممزوجا بالسعادة ، الموافقة المطلقة على أفكار الجماعة وإن بـدت غير خيرة، وبذلك يصبح الفرد متكيفا مع الجماعة.. وقد خلص رجال علـم النفس والاجتماع أن الباعث الأول نحو تحقيق البطولات الفردية، أيا ما تكون من بواعث ليس إلا تعبيرا عن روح الانتماء.

وقد فسر البعض الآخر "الانتماء" على أنه فطـري، نظـرا لأن الإنـسان ضعيف بطبعه وفي حاجة إلى الآخر/الجماعة كي يشعر بالاطمئنان. كما أن الذات الإنسانية لا تتحقق إلا من خلال علاقتها بالخارج حيث الجماعة التـي تشاركه الدار والمكان والأرض. وإن أفاد البعض الثالث أن وجود "قـضية" يزيد من الانتماء، حيث يتحول الكل إلى وجهة مشتركة تجمع الأفراد وبالتالي الجماعة حولها.. وما هذا العنصر الضاغط إلا لأن الجماعة واقعـة تحـت تهديد مشترك، حيث جمعتهم الأرض في حيز الضغط.

إذن وفي كل الأحوال.. تعد "الأرض" من أهم بواعث الانتماء ، ومن أهـم نتائجه أيضا..عندما يتحول الانتماء من المعنى المجرد إلى سلوك ما. ففـي الحروب والمواقف الصعبة تتجلى تلك المعاني كلها.

فسر البعض ظاهرة "الاستشهاد" والتضحية حتى الموت بـسبب الانتمـاء، فتحقق الذات بالانتماء، والولاء لقضية الجماعة، ويعبر الانتماء عـن نفـسه بالفناء في القضية أو المشروع العام الجامع لأفراد الجماعة التي تعيش على أرض مشتركة ، أو ترجو أن تجمعها أرض مشتركة.. وليس الاستشهاد إلا أقصى مدى للتعبير عن ذلك الولاء للجماعة والدفاع عن القضية ، فتتحـول التضحية بالذات إلى تأكيد لها، وتلبية نداء الجماعة (بالاستشهاد) تعبيرا عن قوتها الداخلية.إلا أنه يلزم الإشارة إلى مقولة أن الانتماء فطري، في حاجـة إلى إضافة حقيقة موضوعية، ألا وهي أن كل فطري في حاجة إلى تهـذيب وتوجيه أو إلى "تربية".. أي أن الانتماء في حاجة إلى الـصقل بـالخبرات اليومية المضافة والتدريب. فتكون البداية بتحديد قضية/قـضايا الجماعـة،

والتدريب على حب الجماعة وقبولها بكل تناقضاتها (إن وجدت) ، وهو ما عبر عنه البعض بالتدريب على الولاء عند الأطفال أولا. وفي فترة المراهقة يعتمد على الولاء للجماعات الطبيعية ، مثل الأسرة والفصل وفريق الرياضة.. وهكذا.

وأخيرا فعلاقة الفرد بالمجتمع هامة في تحديد حريته وفي التماسك الاجتماعي نفسه. ولأن مسألة الوحدة الوطنية قضية هامة ومصيرية، فإن موضوع "الانتماء" من أهم الموضوعات الواجب تزكيتها دوما في مجال الحديث عن "الوطن" والمواطنة ، وبالتالي حب الوطن وحمايته والدفاع عنه إلى حد الفناء من أجله.لعل نمو وإذكاء روح البطولة لا يتشكل إلا من خلال "الانتماء"، حيث الصراع بين رغبات وشطحات الذات الفردية ، وحاجات الجماعة ورغباتها، فتتولد روح البطولة أولا من خلال وعي الفرد بتحقيق حريته من خلال جماعته ، وفي مرحلة تالية تعبر روح البطولة عن نفسها، من خلال الفناء من أجل قضية الجماعة للتعبير عن الانتماء وقوة الذات المنتمية.

"أحمد رفيق عوض" من أدباء فلسطين الذين مارسوا كتابة الرواية والقصة القصيرة والمسرح. الغالب في إنتاجه هو جنس الرواية:"العذراء والقرية" **1992**م – "قدرون" **1996**م – "مقامات العشق" **1997**م – "آخر القرن" **1999**م..وربما روايات أخرى بعد هذا التاريخ. ما سبق بالإضافة إلى مجموعة قصص "البحث عن التفاح" **1981**م، وحوارية بعنوان "حوار مع إسرائيلي" **1992**م.

أما رواية "قدرون" التي نشرها "اتحاد الكتاب الفلسطينيين" تعد من الأعمال ذات الصلة بموضوع "الأرض" من حيث هي معالجة فنية لتيمة قصصية تبدو تقليدية..ألا وهى صراع الأجيال حول ميراث قطعة من الأرض. إلا أن

الروائي نجح في إضافة دلالات جديدة وعميقة ، تتجاوز فكرة الصراع التقليدي.

الأرض تملكها عائلة "الرمحي"، ميراث متجدد، إلا أن الأبناء انشغلوا عنها بالعمل في القطاعات المهنية. كاد ميراث الجد الأكبر "عثمان" أن يهمل! . لولا أن تواردت الأخبار والشائعات بوجود "كنز" بين طيات الأرض، فاشترك الجميع في البحث عنه الجد والحفيد وفي لوحات نثرية متتالية، يتم الحفر، ويتم الاكتشاف!. إنه تمثال من الذهب الخالص لإله "بعل وعشتاروت" وهو رمز الخصب والنماء والجمال معا. باتت أرض قدرون معبأة بنفس المعنى.. وعلى اتصال عميق الدلالة والمعنى بالتاريخ الكنعاني القديم، وأصبح الرمز عميقا بعمق التاريخ، ممتدا بما يطويه من معاني العطاء والخصب والجمال.

يتذكر الجد كل الحروب التي خاضها، ومرت أحداثها على تلك الأرض، وبقوة يعلن عن استعداده لخوض معارك جديدة. لقد علم بتفاصيل المؤامرة الخبيثة التي شارك فيها الحفيد "علي" مع "توفيق الساري" لبيع الأرض إلى "شليطا" ذاك اليهودي الأمريكي. طوال تلك المرحلة المبكرة لم ينس الجد أن يقص على مسامع أحفاده حكايات الشهيد، كل الذين استشهدوا من أجل الأرض من قبل.

ولأن الأرض هي المستقبل، لم يتوان الجد عثمان عن دفع الأحداث نحو إعدام الحفيد "علي" الخائن لتراث العائلة ولقدرون كلها. لتصبح مشاهد الإعدام للحفيد وزميله هي أبواب المستقبل، مستقبل هذه الأرض وغيرها. الأرض، التي هي مبعث الشعور بالوطنية والفخار ، بل والمتعلقة بحياة كل أفراد العائلة (عائلة عثمان) ، وكل الناس في "قدرون".

القصة القصيرة والانتفاضة:

قصص "حسن حميد" القصيرة حول "الانتفاضة:

..قصة "ليلا..قرب الجدران":

"تحت الضوء الكاشف ،وحين التقت النظرات ، نهض المشهد!ارتعش الولد "عطية"، وسقط دلو القطران من يده وانكمشت أصابعه على الفرشاة، وهب واقفا في مواجهة الجدران! دعا قدميه للحركة والفرار ، فلم تستجيبا له، وحرنتا! وقبل أن يرتد النظر ، أطلق الخواجة "شاؤول" الرصاص نحو "عطية" ، فانتفض الولد في وقفته، واهتز. وبدل أن يسقط على الأرض، ارتمى على صدر الجدران، ولون الكلمات التي كتبها!وحين وصل الخواجة شاؤول إليه.. ركله بقدمه ، فتهاوى عطية على الأرض.. جثة بلا حركة فيها، وسكن وانكشفت الجدران، من خلفه، عن كلمتين كبيرتين بلونين طريين (أسود وأحمر)، تتمددان بهدوء قرأهما (لا .. للمحتل)!

فهاج شاؤول وماج، واستنفر بندقيته، وتعالت الضجة.. ونمت!! لكن ورغم ذلك كله، ظلت الجدران قابضة على الكلمتين!!".

قراءة..

بكلمات. .قليلة ، مكثفة ، ودالة ، بدت اللوحة نابضة وحية. تلك هي القصة القصيرة جدا التي قرأناها. فلا هي أحداث تتوالد، ولا هي حوارية، وإن استبدل القاص تصعيد المشاعر حتى ذروتها مع صمت الحوار أيضا. تعطي تلك القصة صورة من صور المقاومة/ الانتفاضة، ألا وهي: الطفل المشارك.. التوتر والتوجس والخيفة على الجندي الإسرائيلي، على الرغم مما يحمل من ذخيرة قاتلة.. إلى هذا الحد تبدو الشراسة والفظاظة ، الطفل دفع حياته في مقابل كلمتين.. وبعد أن انتهى الأمر، سقط الطفل على الحائط، وذهب الجندي بسلاحه، وبقيت الكلمتين "لا..للمحتل".

قصة "عنوان عبودة"..

"في المشفى، لم يدر الولد الفلسطيني عبودة ، ابن مدينـــة الخليـــل، لمـــاذا راحت "الخواجاية" دينا ، الممرضة تلاحقه، وتواسيه وتساهره ليلا حين يشتد عليه الألم! بعد أن كسر أبناء جلدتها ذراعه ، وساقه اليمنى ، وقد أدخل إلى المشفى وهو غائب عن الوعي تماما وقد نزفت جروحه كثيرا داخل ســيارة الجيب الصغيرة ، التي نقلته وتحولت سمرته صفرة باهتة.. لا تبعث علـــى الارتياح في النفس!لذا ، تحديدا ، استلطفته الخوجاية دينا ، وتـــوددت إليـــه! وحين بدأت تحادثه ، وتلمس ذراعيه ، وجبينه ، استغرب أمرها! وصارحته بأنها معجبة بصبره، وشجاعته.. وتحمله للألم رغم جروحه الكثيرة! وابتسم عبودة لها، وابتسمت له، دون أن تدري معنى ابتسامته!

وعندما لاحت مظاهر الشفاء على الولد.. رجته أن يلتقيا ثانيـــة. وأعطتـــه عنوانها.. وسألته أن يعطيها عنوانه! فابتسم عبودة وقال لهـــا: لـــدي ثلاثـــة عناوين !الأول: مدينة الخليل.الثاني: أحد سجونكم.الثالـــث: إحـــدى الـــبلاد العربية القريبة من الحدود!فأيها تريدين؟ودونما اكتراث ، ابتسمت الخواجاية دينا، واختارت عنوانه الثاني ، لاعتقادها أنه أضمنها ، وهناك ، فـــي أحـــد سجونهم، ستكون قادرة على رؤيته ، وربما الاختلاء بـــه ، فلقـــد أعجبهـــا "عبودة". وحين جاءت سيارة الشرطة لتأخذه ، افترقا!لوحت له طويلا ، ولم يلوح لها!لأن الخواجات قيدوا يديه!".

قراءة..

قصة تتابع سابقتها ، وهكذا أحوال الأطفال مع الانتفاضة. "عبودة" شـــهيد القصة السابقة، لم يمت. وصل المشفى هاهنا في تلك القصة ، فكانـــت تلـــك المشاعر التـــي لا ينكرهـــا أحـــد.. إن كانـــت صـــادقة أو كاذبـــة ، لـــن نرفضها..!المأساة أن الطفل (الصبي/الشاب الصغير) لم يستطع أن يعبر عما

يجيش في نفسه ، فقد سبقه أبناء جلدة الخوجاية دينا إلى تقييد يديه.. حتى رد التحية بالسلام، لم يستطع أن ينفذها.. نجحوا في تكبيله !!

قصة "موشيه"..

"في مدينة أريحا، وعند الصباح تماما، استيقظ الخواجة موشيه، ونفر في جماعته قرب المدخل الشمالي لمخيم عين السلطان.كانوا جميعا متذمرين من البرد، والمطر ، والمطاردات اليومية ! بدا الوقت مبكرا ، حين أطلق موشيه آهة طويلة وزفر! فلفت انتباه صحبه، الذين قلبوه بأبصارهم ، وهزوا رؤوسهم، ولم ينطقوا فحاله من حالهم تماما!حينئذ، بدت أنظارهم مشدودة إلى مدخل المخيم تنتظر ما يحمله اليوم الجديد!لحظات وانكشف النهار عن حركة ناس المخيم ، حشد من الصبية والشبان ، والفتيات ، والأمهات يملأون الأزقة والدروب ، وحركتهم لا تهدأ ، تطاولت قامتهم ، وتفاوتت.

كانت الأوامر لدى موشيه وصحبه ، واضحة وصريحة.."تفريق التجمعات بالقوة"، لذلك امتد الكلام، وقامت ضجة الرصاص ، والحجارة ، والعصي، وزجاجات المولوتوف. وانبعثت رائحة الغاز ، والبارود ، والبصل، والكاوتشوك ، وبدا المشهد موجعا، وجميلا في آن واحد. ولاح صبية المخيم، وناسه ، إن موشيه متعب ومنهك منذ الصباح ، وهو يتراكض بجسده البدين مع جماعته، من مكان إلى آخر!واحد من أبناء المخيم ، قال لمن حوله:"سيرى، هذا التخين ، أبشع مما رأى ، وستتباهت حركته أكثر، والأيام بيننا!"وتمتم موشيه نفسه ، خوفا من وشاية أصحابه! (يا إلهي ، أما من نهاية لهذا العذاب)؟! دون أن يدري أن صحبه ، مدوا هذه التمتمات في صدورهم منذ نهار الأمس!".

قراءة..

قصة تعرض وجهة نظر الكاتب على لسان "الآخر".. وإن كانت تلك هـي وجهة نظره فعلا وحقيقة، فإننا اقتنعنا بتلك الكذبة الفنية الجميلـة.لـم تكـن القصص الثلاث السابقة.. زاعقة أو منفعلة.. كانـت معبـرة عـن وجهـة نظر...حملت الأفكار التي يريدها القاص، ووظف لها المفردات المباشـرة، والتراكيب الفنية... لم يكن "الآخر" أسطوريا ، أو غير إنـساني..وهـو مـا أعطى للقصص قيمة خاصة...

نماذج أخرى من القصة القصيرة والانتفاضة

قصة "الأرض".. تأليف "طلعت سقيرق":

"الأرض" ليست الحيز المكاني، هي "الإنسان" بعد أن تصبح وطنا. وتبقـى من مرتكزات جوهر "الهوية" إذا أصبحت محل الصراع. وعندما صـادرت إسرائيل 20 ألف دونم في الجليل (في تشرين الأول 1975م) ، أعلـن يـوم 30- 3- 1976م ليصبح يوم الأرض.وإن أعلن "حاييم هرتزوغ" في مؤتمر مدريد مقولته السلبية التي سار وراءه الأوروبيون بعدها، حين قال: "إرهاب الإسلام".. لم يتنازل الفلسطيني عن مطالبته بأرضه. يكفي أن نصف القضية الفلسطينية بأنها قضية شعب سلبت منه أرضه.كان من الطبيعي أن تـصبح "الأرض" موضوعا ورمزا في الإبداع الأدبي في الانتفاضـة، منهـا قـصة "الأرض" للقاص "طلعت سقيرق".

نص القصة:

"أطلق الجندي الإسرائيلي الرصاص.. وأطلق هو الرصـاص.. تطلعـت "أريحا" بقلق.. سقطا معا.. قال الجندي هذه الأرض لي.. قال هو: كان جدي يحب السنديان.. أصر الجندي، أنها لي.. وحكى هو عن جدته التـي كانـت تتجول كل يوم في شوارع "أريحا".. شعر الجندي ببرودة الأرض.. وكان هو

يحس بدفء لا مثيل له.. قال الجندي الأرض باردة.. وضحك هو ضحكة طويلة، طويلة.. وما أن همدت حركة كل واحد منهما.. حتى سحبته الأرض إليها، شدته بعمق.. وبقي الجندي معلقا على أطراف بندقيته الباردة!".انتهت القصة القصيرة جدا، الدالة جدا!!

قراءة:

ولد القاص في حيفا ، نشأ في دمشق ، عمل بالصحافة منذ عام 1976م. يبدو تأثره بتقنيات الكتابة الصحفية الموجزة الدالة ، فكانت القصة على عمق الفكرة، وسعة التناول لموضوع معقد ومتشعب.. أشبه بقارورة زجاجية تحمل رمادا لكائن كان سوف يعود إلى الحياة حتما ، بحسب المعتقدات البوذية.

إن اختيار "الأرض" موضوعا للقصة، وهي هنا ليست موضع صراع ورمز موظف في العمل الأدبي.. إنها أحد أطراف وعناصر تشكيل القصة، عضو عامل، مثل "الجندي الإسرائيلي" و"هو العربي الفلسطيني". وهذا التناول لفكرة الأرض يعد في ذاته تناولا جديدا وطرحا إيجابيا لتوظيف الأرض في أدب المقاومة.هذا فضلا عن كون "الأرض" في ذاتها ، من أهم عناصر تشكيل "أدب المقاومة" ، شعرا أو نثرا. لقد بدأ الجندي الإسرائيلي بإطلاق النار من بندقيته(البداية عدوانية).. فبادله الفلسطيني ورد عليه بالرصاص أيضا (العين بالعين والسن بالسن والبادىء أظلم).. بينما كانت "أريحا"/ المدينة/ الأرض (المتابعة عن بعد) تتطلع وربما تنظر.. فلما سقطا معا من جراء إطلاق النار ، دار الحوار التالي:

"الجندي: هذه الأرض لي.. هو: كان جدي يحب السنديان.. الجندي بإصرار ومكابرة وعناد: إنها لي. فاضطر هو لأن يحكي حكاية أجداده (جذوره وأصوله): كانت جدتي تتجول في شوارع أريحا.الجندي بعد سقوطه شعر ببرودة الأرض (الأمر ليس هينا) ، يبدو أنها غير متعاطفة معه ، ولا تريده في جوفها.وإلا لماذا شعر "هو" بدفء لا مثيل له..؟!! أليس الحضن الدافئ

هو حضن الأم أو الحبيبة، الأصل والوصل معا. وأن الدفء هنا يحمل دلالات الحياة النابضة الحية.

عاد الجندي يصرخ: الأرض باردة!! سؤال استنكاري أم اعتراض ودهشة؟؟كان رده هو ضحكة طويلة.. طويلة/ واثقة وتعبر عن الطمأنينة والسعادة.ما حدث أن همدت الجثتان ، الجندي والفلسطيني وهذا أمر طبيعي ومنطقي..لكن ما حدث بالضبط أن لعبت الأرض دورها الذي قررته هي بنفسها..أن شدته إليها، شدته بعمق إلى باطنها واحتوته. بينما ظلّ الجندي الإسرائيلي معلقا بطرف بندقيته الباردة، لفظته الأرض ورفضته."وهكذا فهمنا تلك القصة القصيرة جدا، الجميلة لدلالاتها ، بلا صوت زاعق وبلا رفع شعار أيديولوجي مباشر.

قصة "إمبراطورية زينب"..للقاصة "جاردينيا الحمران":

النص:

"تجلس متشبثة ببعض كرامة وبقايا عنفوان يعكسهما بريق عينيها المتحدي وقد استوطن القهر والألم مجرى الدماء منها. وهاهي تمعن في أنقاض بيتهم المتهاوي أمام ناظريها.رأيتها داخل خيمة جادت بها وكالة غوث اللاجئين بعدما أصبحوا في العراء ، لكنها خيمة عصرية ليست ككل الخيام، بها من أسباب الرفاهية والتطور التقني ما لا يتوقع.في زاوية منها تشرئب ثلاجة 20 قدما، بها كل ما تهفوا إليه البطون. وفي زاوية أخرى جهاز (تليفزيون) ملون 30 بوصة يبث مئات القنوات خاصة الفضائيات العربية المواكبة لكل متطلبات العري والخلاعة إلا من رحم ربي.أما الركن الثالث ففيه مكتب زينب، وبقربه مكتب أخيها أحمد، وعليه زهرية حمراء منقوش عليها (كوكا كولا) فيها وردة بيضاء، وبيد زينب زهرة بنفسجية قطفتها من حديقة خيمتهم، تنتظر أن تأتي أمها بزهرية جميلة من تلك التي على مكتب أحمد.

فقد ذهبت الأم لتمارس هواية (shopping) في أحد المراكز القريبة من خيمتهم، ربما تحضرها من "جنين سنتر" أو "رفح مول".

وضعت زينب زهرتها البنفسجية وقامت تتراقص فوق السجاد الشيرازي على أنغام (كليب آ ااه ونص). هي تعيش سعيدة بحياتها في ظل ما يحويه القرن الواحد والعشرون من رفاهية العولمة والديمقراطية وحريات الشعوب، خصوصا حرية الإنسان العربي.عادت الوالدة بسلة الأمنيات ذات الثقوب الكثيرة، فمال النسيم بأفراخ زينب جذلا ونامت على متكأ الأحلام. في الصباح أشرقت شمس الشموس فتبخرت قطرات الندى المنثورة على أزهار الحديقة وكأنها لؤلؤ من اللجين ، كذلك من شعاع رقيق على وجوه النائمين فاستيقظت زينب ونهضت عن سريرها ، طوت لحافها الوثير ورتبت مفرشه ثم راحت تغسل وجهها وعادت تقول:

-أحمد..

استيقظ أحمد بسرعة.

– هيا يا أخي لا أريد أن أتأخر عن المدرسة فاليوم لدي حصة إضافية.

أيقظته واتجهت إلى مكتبها وإذا بها تصيح:

"يا إلهي لقد نسيت أن استخرج حقيبة كتبي من تحت الركام. وعادت تمسح الحقيبة من غبار الأمس، وتسكب كؤوس الواقع في مجرى المحال."

قراءة:

ترجع خصوصية تلك القصة أنها لاسم أظن أنه جديد على الساحة الإبداعية الفلسطينية، يتميز بالصدق والبساطة والرشاقة مع خيال بكر لافت.صوت الراوي أنثوي، يرصد مشهداً مأساوياً من مشاهد الانتفاضة، وما أكثرها. وعلى تكرار مشهد هدم البيوت، التقطت الراوية جزئية منه تتصل بعالم الطفولة، وهو ما أعطى بعدا خاصة لأفاعيل العدو في أطفالنا/ مستقبلنا.

جلست الطالبة الصغيرة "زينب" أمام حطام البيت تبكي كل شئ...تـدخلت الراوية، توقعت ما يمكن أن يكون عليه الحال بعد ذلك..سوف تتبرع وكالـة غوث اللاجئين بخيمة !!"رأيتها داخل الخيمة" بتلك الكلمات القليلـة انتقلـت القاصة من زمن الماضي/الحاضر إلى زمن المستقبل، وهي نقلة فنية بسيطة وفاعلة.وتبدأ في رسم صورة وردية للحياة داخل تلك الخيمة.. وهنـا بدايـة تفعيل "السخرية" مما أكسب العمل بعدا للتأمل والتخيل والتفاعل.هـاهي ذي زينب داخل خيمتها، على سريرها الجميل، وفوق السجاد الشيرازي الشهير، وأمام مكتبها ومكتب أخيها الفخم ، والورود تحفهم من كل جانب.ولأن "الأم" من هواة التسوق!! ، خرجت حالا للتسوق من "المول" أو "السنتر" التجـاري الممتلئ بكل ما تتمناه العيون والقلوب والبطون.كل هذا بفضل "العولمة" التي أتاحت للجميع ممارسة الديمقراطية والحياة الرغدة الهنية. فكل الحديث مـن التليفزيون والثلاجة وغيرها متوفر داخل الخيمة. ولا تنسى الكاتبة الإشـارة إلى "الكوكاكولا" التي تجمل الزهرية من الخارج، ذاك المشروب الذي طالبت القوى الوطنية مقاطعته بسبب دعم الشركة المنتجة لإسرائيل.انتهى كل شـئ بسلام وسعادة.. فنامت "زينب".إلا أنها استيقظت كربة بيـت فـي الـصباح الباكر، تذكرت أنها يجب أن تحضر حصة إضافية قبل بداية اليوم الدراسي، وهو ما حدث بالفعل. أيقظت أحمد، وانتبهت إلى حقيبتها، وأزاحت التـراب عنها بسبب فعلة الأمس!!أين السجاد والمكتب والتليفزيون وغيرها؟.. لا شئ غير الواقع المؤلم الذي هو بين الحلم والحقيقة.

وهذا هو الوصف الحقيقي لكل ما يحدث على أرض الواقع من هـول مـا يحدث!!ومع ذلك..لا يبقى إلا العلم والعمل، وهذا ما فعلته "زينـب"، عنـدما أسرعت إلى مدرستها في الصباح الباكر لهـدم بيتهـا لحـضور الحـصة الإضافية."

هذه القصة القصيرة، وربما القصيرة جدا، تحمل الخصائص التالية:

- تخلو القصة من الرصد المباشر والتسجيل غير الفنـــي للوقـــائع القاســـية والمؤلمة.
- بعدت القاصة بقصتها عن الصراخ بالشعارات واكتفت بـــالفن ووســـائله للتعبير عن فكرتها.
- تتميز القصة بالسلاسة والانتقالات الرشيقة بين الأزمنة الحقيقية والفنية.
- على الرغم من كآبة الموضوع إلا أن روح السخرية غلبت وأضافت بعدا جماليا داخل القصة.

يرجع فن كتابة السير والتراجم إلى مدونات الإنسان في كل الحضارات القديمة، منذ أن نقش على جدران المعابد بل والمقابر قبلها.. ربما سعيا إلى الخلود ومواجهة النسيان.

نلاحظ أن التراث النثري العربي مليء بالعديد من تلك السير التي تتسم بما هو ذاتي الطابع /عامي الاهتمام، ومزيجا بينهما. لعل أهميتها ترجع إلى كونها تكشف عن تجربة/تجارب يمكن أن تعد إضافة إلى القارىء..وربما إضافة إلى التاريخ نفيا أو إثباتا لوقائع ما.فعلى تنوع تلك السير وكثرتها، تكشف عن وحدة ثقافية حقيقية وبلا افتعال بين أرجاء العالم العربي/الإسلامي. ما من كاتب إلا وله محطات وخبرات وعروض وتجارب بين أرجاء الأقطار المختلفة من الشام والأندلس ومصر والجزيرة العربية وغيرها. كما تبرز تلك السير ذاك الازدهار الفكري والتفاعل الثقافي مع الآخر، سواء في الشرق البعيد أو الغرب الأوروبي. وهو ما يجعلها تعكس قدر هائل من أنماط التفكير وغريب التجارب، ليس فقط على المستوى الشخصي أو الإقليمي بل والإنساني.. خصوصا تلك التي كتبت وصنفت على أنها من أدب الرحلات في بلاد آسيا البعيدة.

قد يدهش القارىء من الوهلة الأولى إذا ما تأمل أغلب تلك السير القديمة.. تكاد لا تخلو من ملامح إنسانية نعيها حتى اليوم. فالقضايا الإنسانية والفكرية تكاد تشترك في العديد منها، مثل صراع الأجيال بين القديم والجديد، والاعتراف بما قد يتناقض مع الشائع والمألوف من التقاليد، والصراع بين العلماء والتكالب على المراكز المرموقة، ثم الحلول الفردية باعتزال المجتمع والإحساس بالغربة.. وغيرها من الظواهر الإنسانية التي قد يعاني منها المثقف حتى أيامنا هذه.لعل أشهر تلك السير، ما كتبه "ابن سينا"، " لسان

الدين الخطيب"، " الغزالي" و غيرها. أما "أسامة بن منقذ" (488-548 هجرية) له وقفة خاصة. فهو فارس من فرسان الإسلام حيث خاض غمار الحروب الصليبية، وعاش عهود الحكام الثلاثة (عماد الدين، نور الدين ، وصلاح الدين) ولكل منهم مواقفه البطولية في مواجهة الفرنج الصليبيين.. ربما أغلب ما عرف عنه وعن مواقفه كمفكر وكاتب وفارس ، بدت إلى جانب القائد صلاح الدين الأيوبي ، لما لتلك الفترة من أهمية تاريخية.

أهم خصائص سيرة أسامة بن منقذ أنه كتبها على شكل "اليوميات" ، وهي المرة الأولى التي عرفت فيها العربية "فن اليوميات". ذلك في كتابه الهام "الاعتبار" ، وهو بذلك دون أن يدري أضاف شكلا غير مسبوق إلى النثر العربي. فقد عمد في عرضه على تسجيل اليوم وأحداثه تفصيليا ، فأصبح رائدا في فن كتابة اليوميات في العربية ، وقد شاع هذا الشكل من بعده.وهناك بعض الدراسات ترجع تناول "أسامة" لهذا الشكل إلى إطلاعه على بعض اليوميات بلغة الفرنجة ، خصوصا أنه أجاد بعض اللغات بل وتفاوض خلال عمله الرسمي إلى جوار "صلاح الدين" ، ولا نشك في كونه اطلع عليه بلغة الغربيين (كما قيل أنه سافر إلى إنطاكية في مطلع شبابه).

كما يرجح أنه فضل الكتابة على شكل اليوميات لحرصه على التسجيل السريع والمباشر واليومي لكل الأحداث الهامة والخطيرة التي مرت به وبالمنطقة. فقد شارك في أحداثها ، وخلال المعارك ، ربما يمكن القول أنه قام بوظيفة المستشار العسكري لصلاح الدين الأيوبي قبل وأثناء وبعد المعارك المتجددة دوما.إنه إذن أضاف إلى النثر العربي شكلا لم تعرفه العربية من قبل في كتابة التراجم والسير. الشكل الذي أصبح منفصلا وله خصوصيته.

تعرض "أسامة" في كتابه إلى مرحلة طفولته، حيث تحدث طويلا عن أبيه وعن شجاعته وأنه من المقاتلين ومحترفي الصيد، ولم يكن الأب يترك

المصحف من بين يديه حتى أثناء فترات الراحة خلال رحلات الـصيد.أمـا الجانب الحربي ورصد الصراع العسكري مع الفرنجة ، يلاحظ القارىء أنه لم يتحدث عن نفسه. كل ما جمع عن بسالته وبطولاته العسكرية يمكـن أن يعرفها القارىء من كتابات الآخرين عنه. ففي كتاب " الروضين" لكاتبه "أبو شامة" قدم وصفا وسرداً لأحداث هامة حول شجاعة " أسامة" أثناء حـصار قلعة "حارم" وغيرها من الوقائع. كما وضح في كتاب "الاعتبار" قدر إعزاز وتقدير "أسامة" لصلاح الدين. يتحدث عن أفضاله فيقول:"ناداني إليه مكاتبـة مولانا ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، جامع كلمة الإيمان، رافع علم العدل والإحسان، محيي دولة أمير المؤمنين.. فاستنقذني من أنياب النوائب برأيه الجميل ، وحملني إلى بابه العالي الغامر الجزيل، وجبـر مـا هاضه الزمان مني، وأنفق على كرمه ما كسد عنه سواه".

يمكن الإشارة إلى بعض الملامح العامة حول تلك اليوميـات بالتـالي: أن الكاتب استخدم الشعر أحيانا تعبيرا عن أرائه وأفكاره .. كمـا أن اليوميـات تخلو من النرجسية وتفضيل الذات عكس الكثير من السير واليوميات.. سمة الصدق والشجاعة وقول الحق بلا انفعال، أو على اعتبار غير الموضوعي، حتى أنه وعلى ما في تجربته من قسوة مع الفرنج إلا أنه لم ير فيهم أبالـسة وشياطين كما قال البعض من معاصريه.. بل ناقش أفكارهم وسلوكهم بحياد موضوعي. ولا يبدو منفعلا شديد البأس إلا عندما يسرد المعارك وأحداثها.

في وقفة سريعة مع فن اليوميات والسير والمذكرات للكتاب الفلسطينيين، يلاحظ المتابع كثرتها، ربما لما يحمله هذا الشكل النثـري مـن خـصائص وميزات..حتى أن البعض من كتابها لم يكن من كتاب الإبداع النثري. كـأن اليوميات والسير والمذكرات في الأدب الفلسطيني المعاصر، علـى كثرتـه، جاء وليد الحاجة الملحة لأبناء الوطن للتعبير عما يعانيه ويقلقه.

نشير إلى بعضها:"شريط الذكريات عن غزة نصف قــرن/ إبــراهيم خليــل سكيك"، "حديث الصومعة/ إبراهيم الدباغ 1936م"، "من بيدر الحياة وضيف على الذكريات/إبراهيم السمان 1971م"، "أوراق من مفكرة شــارع عربــي خلال الانتفاضة/إبراهيم نصر الدين 1988م"، "لوبيا-سجل وثــائقي حــول معارك أهل قرية لوبياء ضد الغزاة اليهود عام48/إبراهيم يحيــى الــشهابي 1954م"، "غربة الراعي/إحسان عباس 1996م"، "فلسطين في أرض الغربة/ أحمد سعيد محمدية 1970م"، "شوارد وشواهد/أديب عفيف الخياط 1964م"، "أوراق سجين/ أسعد عبدالرحمن1969م"، "صــفحات خالــدة مــن تــاريخ فلسطين/ إلياس حنا إلياس1974م"، همسات مــن الغربــة/ الــيكس عــودة 1983م"، "أن تكون هنا/ امتياز ذيــاب 1998م"، "كفــر قاســم المجــزرة السياسية/إميل حبيبي "، "نقوش/أنطوان فرح 1974م"، "من ملف رســائلي، تسابيح، شمس على النبي/أنيسة درويش96و98و1999م"، "من السفح إلــى الوادي إلى صوت أجدادي/برهان الدين العبوشــي"، "أوراق أيلــول/ بــسام أبوشريف1978م"، "خفقات قلب/ بسام فيضي 1983م"، البئر الأولى وشارع الأميرات/ جبرا إبراهيم جبــرا 1987-1994م"، "عبيــر اليــامين/جمــال قعوار1990م"،"رسائل تخترق الأسلاك الشائكة/ جمال يوسف سلسع1992م" "من عندي/ جميل دحــلان"، "شــجرة المعرفــة/ حنــا إبــراهيم1996م"، " أعزائي/خليل السكاكيني1978م"، "أوراق شخصية للشهيدة دلال المغربــي/ دلال المغربي1978م" ، "رائحة التمر حنا/رشاد أبو شاور 1999م"، "أوراق عن بيروت والناس والحصار/ زهير غزاوي1984م"، "قطــة ســوداء فــي الشارع/زياد عبدالفتاح1984م"، "مذكرات مقاتل في العرقوب/ ســامي أبــو النور 1980م"، "الرسائل/سميح القاسم1990م"، "ذكريات مقدســية/ ســيرين جمال الحسيني 2000م"،"تداعيات ضمير المخاطب/عادل الأسطة 1993م"، "لماذا من عفو الخاطر/عبد الرءوف رزق المصري"، "رســائل لــم تــصل

بعد/عزت الغزاوي1992م"، "النهوض مرة أخرى/علي حسين خلف1978م"، "ونحن يامولانا1989م، بيت النار/علي فتح الله الخليلي1982م"، "المراحل/عمر الصالح البرغوثي"، "تذكرات عودة الأشهب"/عودة الأشهب 1998م"، رحلة جبلية رحلة صعبة والرحلة الأصعب/فدوى طوقان1993م"، "المحروم من الميراث/فواز تركي1972م"، "نهارات الدفلى/فواز عيد"، "ظلام السجن/محمد علي الظاهر1951م"، "ظل آخر للمدينة/محمود شقير 1990م"، "مذكرات شاعر/معروف رفيق محمود"، "مي زيادة في مذكراتها/ مي زيادة 1956م"، "أيام الحب والحصار/ نبيل عمرو 1983م"، "الرحلة الأخيرة/ هشام شرابي 1988م"، "مقاتلون وراء المتاريس/يوسف القزاز 1981م"، "ربيع الحياة/ يوسف هيكل1989م"، "الكتيبة 141فدائيون/يونس الكتري1987م".(من مصادر الأدب الفلسطيني الحديث ــ د.محمد عبد الله الجعيدي).

تتعدد النماذج والتناولات في فن اليوميات ، بداية من السرد المباشر للحدث اليومي ، إلى السرد الحكائي.. ومن كون الكاتب ذكرا أو أنثى فضلا عن عوامل أخرى تتعلق بالسارد إبداعيا وثقافيا.. وغيرها من الجوانب التي نلتقط منها نموذج "مريد البرغوثي" و"ساما عويضة".

"رأيت رام الله"..بين السيرة والقص:

"مريد البرغوثي"..يبدأ بقوله:

"الطقس شديد الحرارة على الجسر.قطرة العرق تنحدر من جبيني إلى إطار النظارة.عندما انتهى المنفي من امتحان ليسانس الآداب بالقاهرة، كانت حرب يونيه 1967م، واحتلال "رام الله"، حيث منعت السلطات الإسرائيلية عودة الشباب إلى مدينتهم. وكانت بداية المنافي... وحيث كانت قصيدته الشعرية الأولى منشورة بعنوان"اعتذار إلى جندي بعيد" وكأنها النبوءة، فقد نشرت

بمجلة المسرح في الخامس من يونيو 1967م!!فلما عبر الجسر..بعد ثلاثين سنة من الغربة وطول انتظار.."الآن أمر من غربتي إلى وطنهم؟ الضفة وغزة؟ الأراضي المحتلة؟ المناطق؟ يهودا والسامرة؟ الحكم الذاتي؟ إسرائيل؟ فلسطين؟". وبعد طول انتظار وإجراءات طالت عبر بوابة الصالة الحدودية والمبنى كله إلى الشارع: " بوابة الأبواب/لا مفتاح في يدنا.ولكنا دخلنا/لاجئين إلى ولادتنا من الموت الغريب/ولاجئين إلى منازلنا التي كانت منازلنا وجئنا"، وبعد طول سؤال "مريد" عن عنوان الدار التي يبحث عنها، اتصل بأحبابه في عمان والقاهرة، أخبرهم:" أنا في رام الله"!!.." الصباح الأول في رام الله."... أسارع بفتح النافذة:" شو هالبيوت الأنيقة؟"..سألت وأنا أشير بيدي إلى "جبل الطويل والخارجية،رام الله والبيرة.."مستوطنة"."وكانت ذكريات الطفولة والمراهقة.. ثم كانت التيارات السياسية الداخلية والخارجية، العربية منها بالذات..حرب1956م والوحدة بين مصر وسوريا ثم الانفصال والبكاء.وفي العودة تعرف "مريد" على وجوه عرب1948م:"أسميناهم لاجئين! أسميناهم مهاجرين!"."من يعتذر لهم؟" "من يعتذر لنا؟".لكن الاحتلال يمنعك من تدبير أمورك على طريقتك، إسرائيل تغلق أية منطقة تريدها في أي وقت تشاء.. إنه موجز ما يقال عن حالة الكاتب في "هنا رام الله"... "لكل بيت في دير غسانة اسم".. وحيث التعرف على الأشياء والبحث في قاع الذاكرة البعيدة، ربما الأبعد من المتذكر "مريد" نفسه. البحث عن/في الجذور وإن بدت بحثا في أصول ألقاب العائلات !..لكن هناك الفتى الشهيد بسبب المظاهرات، وحنق الأهالي من سلوك المحتل بمنع التوسع والبناء خارج حدود القرى...ولكنه في النهاية الإحساس السخيف:"سخيف أن تطرح في مسقط رأسك أسئلة السياح:من هذا وما هذا.."..ومع هذا كله شعر الكاتب أنه عندما شاهد ماضيه ككلب ملقى على الأرض، تمنى لو يقبض عليه ليقذف به إلى أيامه التالية.

.. "لم أنبذ الرومانسية لأن نبذها موضة فنية، بل الحياة ذاتها هـــي التـــي لا شغل لها إلا إسقاط رومانسية البشر..". أخيرا عاد مريد إلى القاهرة وأسرته بعد ممانعة من السلطات لمدة سبعة عشر عاما. لكن البهجة لا تأتي بمجـــرد أن تضغط الحياة زرا يدير دولاب الأحداث لصالحك ، لأن السنوات محمولة على أكتاف المرء... "شهوة اللصوصية، الطفل فينا نغافل بخل العجوز التي وجهها مثل كعك تبلل بالماء، كي نسرق اللوز من حقلها. متعة العمر أن لا ترانا"..."

وفي القاهرة تبدل كل شئ.. الأشخاص والأماكن والحالات.."اقتـــادوني إلى دائرة الجوازات في مجمع التحرير.ثم أعادوني في المساء إلـــى البيـــت لإحضار حقيبة السفر وثمن تذكرة الطائرة.. فـــي الطـــائرة قلـــت:"وداعـــا أفريقيا".. لم أقم بأي فعل لمعارضة زيارة السادات لإسرائيل..لكنها وشـــاية لفقها زميل معنا في اتحاد الكتاب الفلسطينيين"..يبدو أنه من المستحيل التشبث بمكان، انتقل "مريد" من عمان إلى بغداد إلى بودابست إلى القـــاهرة ثانيـــة. فكان التخلي عن نباتات الشرفة التي يرعاها بنفسه، وعن مقتنيـــات الغربـــة بشكل خال من المشاعر، ودخل سلوك حياة الفنادق عنوة إلى حياته.. ففيـــه الخلود القصير إلى النفس مع التخلص من الالتزامات الاجتماعية ثم التخلص من سطوة الجار على جاره!!. لكنه في الحقيقة مازال يقيم في رام الله..فقـــط يتذكر ما كان بالقاهرة ومبنى الإذاعة والتليفزيون الفلسطيني. سأله المـــذيع: "ألسنا شعبا معجزة؟ شعبا مختلفا؟".. فقال له:"كل الشعوب تحارب في ســـبيل الحق والأرض إذا اقتضى الأمر، المعتقلات والسجون مكتظة بمناضلي العالم الثالث."

" الغربة لا تكون واحدة. إنها دائما غربات".

كما يتعود المرء العتمة شيئا فشيئا، هكذا يكون حـال الـسجين والمهجـر والغريب والمنفي ، يعتاد الكل مدنهم وأماكنهم الجديدة. وعزاء"مريد" أنـه لا توجد أسرة فلسطينية لا تشكو من الشتات بين أفرادها. فكانت الغربـة فـي بودابست، والقاهرة ، وعمان ، وغيرها. لكنه تذكر يوم أن قابل صديقه "أبو وائل" في حديقة رام الله وأعرب عن عدم اعتراضه على اتفاقية "أوسلو" بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل . يعود إلى حال المنفي الذي يحمل الأوطان معه في كل مكان:" السمكة ، حتى وهى في شباك الصيادين، تظل تحمل رائحـة البحر!".

ومازال"مريد" في رام الله يتذكر، يسعى لاعتماد شهادة ميلاد ابنه بالمكتـب الرسمي الفلسطيني.."تميم سيعيش هنا ذات يوم". كانت فترة الثمانينات أسوأ فترة، حيث حرب المخيمات الفلسطينية في لبنان، حـرب الفـصائل داخـل المنظمة الفلسطينية، شهداء صبرا وشاتيلا...وغيرها.أما وقد جـاءت الليلـة الأخيرة له في رام الله..قدم طلبا للم الشمل مع زوجته وابنه. لكنه سمع مـن قبل بموت منيف شقيقه، وأكد أن أمه لن تبقى على الحياة من بعده.. وتـذكر كل الفراقات التي ألمت به وبأهله.." مستلقيا على ظهري في السرير، أصابع يدي تتشابك تحت رأسي على المخدة، لم أعرف مـا الـذي أبقـى عينـي مفتوحتين باتجاه السقف..هذه ليلتي الأخيرة في رام الله...الليلة أسأل سؤالا:" ما الذي يسلب الروح ألوانها؟"

"فلسطين حبيبتي"..رسالة إلى كل أم عربية:

"ساما عويضة" كاتبة فلسطينية ، تكتب القصة ، لكنها كتبت حكايـات فـي كتاب صدر بعنوان "فلسطين حبيبتي.. لو عرفوها كما عرفتهـا". لـم تكـن حكايات قبل النوم، مسلية وطريفة ، لو سمعها الصغار لفقدوا القـدرة علـى النوم ، ولو قرأها الكبار امتلأت المآقي وبكت القلوب.

لكنها في النهاية رسالة سردية ويوميات غير متتالية من أم فلسطينية إلى كل الأمهات العرب. تقول "د.شيرين أبو النجا" في المفتتح: "الكتابة كالحجارة، أحيانا أقوى من الأسلحة. فإذا كان الضغط يولد الانفجار ، فإن القصف في حالة ساما عويضة. ولد الكتابة. كتبت هذه النصوص في الفترة ما بين عام 2000م وعام 2002م. ودأبت (الكاتبة) على إرسالها إلى عدة أطراف، ما بين أفراد وهيئات ومؤسسات ، عبر البريد الالكتروني". إنها إذن كتابات ساخنة حية خلال فترة الانتفاضة ، حيث يتعرض الأطفال قبل الكبار إلى مهالك عدوانية تتجدد كل يوم ، وكما يردد المثل الشعبي نقول:"كثرة البكا يعلم النواح"!

بداية توجه الكاتبة رسالة إلى ملكة السويد (وقد حملت الملكة مسئولية الانتفاضة وما يصنعه الإسرائيليون في الأطفال على عاتق الأمهات الفلسطينيات!). قالت "ساما" ضمن ما قالت:"أمهات نحن نصحو مع الفجر ولا ننام إلا بعد أن ينام جميع أفراد العائلة...أمهات نحن لا تقدر أي أم في العالم ما نقاسيه حين يخرج أطفالنا من البيت إلى المدرسة في أجواء غير آمنة...أمهات نحن لم نكن من الغباء حتى نفهم بأن المستقبل الكريم لا يمكن أن يتحقق في ظل الاستعمار العنصري، حرم أطفالنا من أبسط حقوق الإنسان..الحق في الحياة، الحق في العيش في ظل أب وأم، الحق في التعلم...الحق...الحق في التعبير عن أنفسهم في وطن..."

ثم كانت حكاية "أحمد"، الطفل الصغير الذي فقد القدرة على النوم، وإذا غفلت جفونه يصرخ وهو نائم: "أبعدوهم..أبعدوهم"!. ولا تنتهي الحكاية، عندما يستيقظ وينتبه لا ينفك يتحدث عن حلم يراوده كل ليلة يرى فيه البحر مياهه حمراء، وهو يسبح فيه ويصرخ مستنجدا؟ ولا من مجيب إلا صدر أمه وكلماتها العاجزة!وهذه حكاية ابن الكاتبة، وقد قررت القوات المسلحة الإسرائيلية معاقبة مدينة رام الله كلها على عملية عسكرية فلسطينية نفذت منذ

قليل. كان عليها اصطحاب ولديها من المدرسة قبل نهاية اليوم الدراسي، حتى يجتمع شمل كل الأسرة أثناء العملية الانتقامية بطائرات الأباتشي والدبابات بعد قليل..الموت معا أو الحياة معا. نجحت..عادت إلى البيت، ولكن أحد طفليها لم ينتبه لكل حسابات وأفكار أمه، تسلل إلى الشارع كي يلعب. لحظات وأصبح يركض في الهواء ويقفز باكيا وقد بات لونه أسود تماما ويصيح بأعلى صوته "ماما..ماما"... وكان عليه وعلى أهله البقاء في المستشفى لأكثر من شهرين حتى استعاد الصغير عافيته. ربما لإرادة داخل الصغير الذي كان يقول لسائق سيارة الإسعاف حين نقله: "أسعفني..لا أريد أن أموت..حرام عليكم..أنا صغير"..ثم يردد كلمات أغنية لماجدة الرومي تقول: "قوم تحدى الظلم تمرد..كسر هالصمت اللي فيك"..!

كما أن "رحمة" البالغة من العمر 52 سنة، قضت أيامها القليلة الأخيرة في وداع الأحبة والأقارب، ولكن بطريقتها وبفعل العدوان. هاهي ذي ابنة عمها تتعرض لغارة وقذف مباشر، فيتحطم منزلها. تنتقل رحمة إليها باكية. ولم تمض أيام قليلة أخرى ويتكرر المشهد نفسه لبيت أحد أقربائها أيضا. ولا تتردد في مشاركته وأهل بيته المصيبة. لكنها وفي طريقها لبيتها تسقط مدرجة في دمائها وتتمزق ملابسها عنها..ولا تقول إلا جملة وحيدة لأحدهم (مصابا إلى جوارها على الأرض):"أستر عليّ يستر عليك". ولا عزاء للجميع إلا لأنها استشهدت مع المناضل "حسين عبيات" الذي تصادف مروره بالشارع في تلك اللحظة، وكان مرصودا من قوات الأعداء. رحمها الله "رحمة" فقد كانت أما للجميع.

بقرار من جيش الاحتلال الإسرائيلي يطلب من العروس "مريم" (17عاما) إزالة الماكياج، وإغلاق خزانتها على كل ما اشترته من ملابس جديدة احتفاء بعرسها وارتداء اللباس الأسود وحتى إشعار آخر.

"محمود" (22عاما) الزوج الشاب الصغير، عريس "مريم"، قتلوه بعد حفلة عرسه بأيام قليلة، لأنه تجرأ وكان من شباب المقاومة أثناء إحدى عمليات الاقتحام لقوات الأعداء لقريتهم، تجرأ وقاوم، فقرروا قتله..ونجحوا .

ولبست مريم الحداد!تقول الكاتبة:" إن محمود اغتيل أكثر من مرة من قبل.. اغتالوه عندما أطلقوا عليه رصاصة مطاطية لم تمته في حينه وهو في العاشرة من عمره.. اغتالوه عندما اعتقلوه وهو في الثانية عشرة من عمره.. اغتالوه عندما حولوا مدرسته إلى ثكنة عسكرية، وحرموه من الحياة الطبيعية التي يجب أن يعيشها الطفل..اغتالوه ألف مرة من قبل.

عندما كانت "منى" مع بقية أفراد العائلة تقلم وتهذب وترعى شجر الزيتون قدم الجنود الإسرائيليون إليهم في القرية. كان الحوار ممتدا ومتكررا، ومع ذلك تعرض بيت العائلة للقذف المباشر من هؤلاء الجنود ومن سكان المستوطنة القريبة.

الحادثة أن "منى" تركت رضيعها بالطابق السفلي، بينما الرصاص موجه إلى المنزل مباشرة بحيث يصعب اختراق درجات السلم للوصول إلى الصغير الباكي. ولم يهدأ القذف إلا بعد ربع الساعة. إلا أنه لم يهدأ من بعد سواء ليلا أو نهارا..كيف لهؤلاء الجنود والمستوطنين أن يقيموا حوارا ذات يوم وفي نفس اليوم يقذفون بالموت إلى محدثيهم بلا سبب واضح؟؟فتركت منى منزلها مع بقية أفراد العائلة إلى شقة في مكان آخر بعيد، لكنها لا تعرف متى ستعود إلى بيتها..بيت العائلة في القرية التي نشأت وعاشت وتتمنى أن تموت فيها مهما تعرضت من مهالك و أهوال!وتعددت الحكايات والأهوال، والرسالة صادقة وأليمة من أم وامرأة فلسطينية إلى كل الأمهات والمرأة العربية.

خاتمة مشتركة:

لقد تعددت الكتابات النثرية الراصدة للحياة اليومية خلال فترات ساخنة لرحلة صراع الفلسطيني على أرضه.. منها الراصد في يومياته وسيرته وكأنه يسجل لذاكرة التاريخ،فيحرص على البعد الإنساني ومن عادات وتقاليد وملامح لشخوص وأماكن..وغيره.ومنها ما جعلها الكاتب وكأنها مرجعا للحقيقة وحدها والتاريخ، فيسرد الأحداث يوما بعد يوم، حريصا في كل الأيام على تأكيد وجهة نظره التي أعلنها سلفا.ومنها الأواه الباكي، وهو حق إنساني طبيعي أن يبدو في بعض السير. إلا أن النموذجين السابقين لهما وقفة خاصة..إن نشأة كتابة فن "اليوميات" في النثرية العربية سجل على الأرض الفلسطينية. وإن راج في العربية من بعد، إلا أن ما كتب بأقلام المحدثين، جاء مزيجا بين السردية الفنية في القص والتقريرية في اليوميات.

ارتبطت كتابة هذا الشكل في التجربة الفلسطينية بمواجهة فظاظة الحياة اليومية تحت وطأة الاحتلال والعدوان اليومي..ليس على المسلحين أو هي مواجهة بين جيشين..بل مواجهة بين جندي مدجج وأعزل لا يملك سوى جسده، وربما يملك حجرا!!ثم اختلاف كتابي النصين..من حيث الجنس، والتجربة المعاشة داخل العمل، وموطن كليهما حيث "البرغوثي" وصل فلسطين زائرا، بعد غياب ثلاثين سنة..و"ساما" امرأة تعيش داخل فلسطين، وأما ترعى أولادها، وكل أولاد الجيران والوطن. وهو ما جعل النموذجين يكملان بعضيهما البعض..لتكشف لنا الصورة التي قد نغفلها، أو تنسينا إياها الأيام.

إذا كانت "المقاومة" شكل من أشكال العنف. تبدأ ب "إرادة" ثم "قــرار" ثــم "فعل".. فإن هذا الفعل على اتجاهين.. إلى الآخر أو المعتدي المباشر، وربما إلى الأنا أو الذات. لتصبح المقاومة بالتالي على شكلين:المقاومــة الإيجابيــة والمقاومة السلبية.

أولا: المقاومة الإيجابية..

وهي الصورة الأقرب إلى الأذهان لفعل المقاومة، حيــث تعــد الجانــب الإيجابي والمرغوب من "العدوان". وإن كان "العدوان" مذموما بــالعموم، إلا أنه لا يعد كذلك عندما يصبح دفاعا عن الذات الجمعية أو تكيفا مــع القــدرة على الصمود أو عملا فاعلا لمواجهة خطر ما من آخر عدواني. هذا الخطر يتسم بتهديد مصالح "الجماعة" الحيوية أو يسئ إلى القيم العليا المتفق عليها، وقد يهدد حرية الجماعة وربما بقائها في الوطن الآمن.

يوصف فعل العنف في المقاومة الإيجابية، بذاك الفعل الذي يتجه إلى الآخر العدواني أساسا، والواعي بحدود جماعته وهويتها وقيمها، والنابع عن إرادة الدفاع عن الجماعة ومصالحها الحيوية. وهو لتحقيق ذلك يتخذ كــل الــسبل حتى يتحقق الهدف الأسمى.

ثانيا: المقاومة السلبية..

هي (أيضا) فعل العنف النابع عن إرادة وقرار ثم فعل، هذا الفعل "القــوي" يعبر عن نفسه بالعنف، إلا أن هذا العنف يتجه إلى "الأنا" أو "الذات".. وقــد يتجه الفعل إلى نقد الآخر وفحصه وتحليله من أجل كشف الجوانب السيئة في هذا الآخر العدواني، دون أن يتسم الفعل بالعنف المباشر، على هذا الآخــر. بينما قد يصل إلى ذروة عنفه مع الأنا أو الذات.ويمكن إجمالا تحديد عناصر

المقاومة السلبية بالتالي: "البدء بتحديد الهدف – تعضيد الذات بالوعي والفهم للقضية/القضايا محور الصراع مع الآخر العدواني – كشف صورة الآخر العدوانية – القدرة على تحمل المعاناة المتوقعة من الآخر الأقوى – تفهم الواقع المعاش مع تحمل المشاكل الطارئة حتى يتحقق الهدف الأسمى – العمل على أسس خطة مدروسة للمواجهة بأقل خسائر ممكنة..وأخيرا تفهم جوهر التاريخ الإنساني، حيث انتصار الخير والسلم والحرية.

لعل نموذج الزعيم الهندي "المهاتما غاندي" أكثر النماذج نضوجا وتمثيلا للمقاومة السلبية. قال في كتابه "في سبيل الحق" أو "قصة حياتي" ملامح المقاومة السلبية. لعله في ذلك وظف ثقافته الهندية التي في جانب منها "المفهوم الخاص بالصمت".كلمة "الصمت" تتجاوز معناها الإنجليزي الذي يعني "السكون". وتعنى في اللغة السنسكريتية بما يتجاوز هذا المعنى المباشر، وتعني:السلام، الهدوء، السكينة. وهي تخص الفرد القادر على الاستنارة دون اللجوء إلى معلم، يكفي أن يقطع عهدا على نفسه بالتزام الصمت لينصت إلى صوت الوجود الذي يستمد منه الأمان والحرية المطلقة.

بالعموم للمقاومة أشكالها المباشرة وغير المباشرة..ومنها البسيط كإزالة عائق ما أمام الذات كي تتحرك للأمام، من أجل حياة أفضل..أكثر رقيا وكرامة ورفاهية، ومنها المعقد إلى حد الصراع العنيف والحروب.

ماذا عن السلم؟"السلام" هو مطلب الإنسان في كل زمان ومكان، هو فطرة الإنسانية، في مقابل "العنف" الذي يرفضه كل عقل راجح.كم عانت الإنسانية من العنف، حتى أن بعض الدارسين أكدوا أن الإنسان عاش في صراع على الأرض إلى حد الحروب، بما يمثل 80% من جملة أيامه وسنين تاريخ البشرية على الأرض. كانت القوة المادية زادا ووقودا للعنف طوال التاريخ البشري، وكان العنف(ومازال) أبرز أساليب ومظهر هذه القوة.. من أجل مصالح مادية ومعنوية، تحققها فئة أو قبيلة أو عشيرة أو حتى دولة أو أمة.

تمثل العنف في تلك الحروب التي لم تفرق بين المقاتل والضعيف من أطفال ونسوة وشيوخ، حتى رصدوا بالإحصاء أن الضعفاء هم الأكثر تضررا من المقاتلين أنفسهم. ربما آخر إحصاء حول حروب القرن العشرين الميلادي ترصد 175مليون نسمة قتلوا بسبب العنف الغاشم الذي استتبع المعارك..لم يفرق بين سكان المدن والمسلحين في ميدان المعركة، ولا بين مقاتل وغيره من الضعفاء.

ويشير المتابع للتقدم التكنولوجي لوسائل المقاتلة خلال الربع الأخير من القرن الماضي، هول الخسائر المتوقعة مع كل سلاح جديد. يكفي الإشارة إلى مثال واحد: أن الأسطول الإنجليزي في القرن التاسع عشر ضرب الإسكندرية واحتلها(وبالتالي مصر كلها فيما بعد) باستخدام 3000قذيفة، نجح منها في تحقيق الهدف 30% فقط.. بينما قتل بقنبلة واحدة(ذرية) ألقيت على هيروشيما اليابانية حوالي ستون ألفا غير المصابين، والمعاناة التي تعاني منها منطقة التفجير حتى اليوم.وقد سعت الإنسانية إلى محاولة مواجهة العنف بكل صوره، بوازع ديني، وعاطفي إنساني، وأيضا كل الأيديولوجيات الأكثر تقدما، وبعيدا عن تلك العنصرية التي تذكر في كتب التاريخ من مدخل التذكر والاعتبار.

ففي القرن الماضي تشكلت عصبة الأمم المتحدة من أجل الهدف الإنساني ولما فشلت جاءت بعدها هيئة الأمم المتحدة..ومازال السؤال قائم حول تقييم دورها خصوصا مع بدايات القرن الواحد والعشرين. إلا أن السؤال نفسه ومهما كانت الإجابة مع أو ضد تلك المنظمة التي أنشئت في منتصف القرن الماضي..هذا التساؤل لا يعني سوى الرغبة الدفينة الأصيلة في الإنسان من أجل تحقيق السلام، ورفض كل صور العنف.

إن اختيار "السلام" يعني اختيار "الحياة" التي جبل الإنسان على حبها، وبالتالي الاهتمام بضرورة إنجاز متطلباتها، ولا يتحقق ذلك إلا بتحقيق السلام

العادل للجماعات، والسلام الروحي للأفراد.ربما يجدر الإشارة إلـى بعـض التعريفات:

"العنف": ضد الرفق (وقد أبرز د.سيد عويس في دراسة منشورة لـه حـول العنف أن المقصود بالعنف في الخطاب الإعلامي العام.. أنه ذلـك العنـف الإنساني، أي الذي يصدر عن البشر..حيث يوجـد العنـف فـي الحيـوان أيضا).وقد يحدث العنف بين الأفـراد كـنمط سـلوكي، أو بـين الهيئـات والمنظمات والجماعات مثل التنظيمات السياسية أو المهنية وغيرها. ومـن مظاهر العنف "الثأر" أو المشاجرات العنيفة..وكلها تـرتكن علـى ثقافـات اجتماعية تذكي العنف.

"السلام": هو ضد مفهوم العنف. والطريف أن البعد الأنثروبولوجي لـبعض الشعوب "أي بعد الجنس الإنساني لشعوب ما"..قد يكون أميل إلـى السـلام، بينما شعوب أخرى أميل إلى العنف إلى حد الحرب. وقد أوضحت الأساطير والحكايات الشعبية للصين أنها من النوع الأول، بينما الهند من النوع الثاني!

وربما من المجدي الإشارة إلى مصطلح "الصراع"..حيث أن العنف يتبدى بالصراع جليا، والسلام يجعل من الصراع تنافسا شريفا كما فـي الـصراع الرياضي. فالصراع يعد عند رجال الاجتماع، نوعا من العمليات الاجتماعية وفيه يحاول أطراف الصراع أفرادا أو جماعات أو حتى الدول تحقيـق كـل الرغبات التي يحتاجها، ومنع الآخر من تحقيقها. وهو على درجـات منهـا اليومي والهين والشديد إلى حد العداوة.

كما أن مصطلح "الضمير" يتداخل لتفضيل العنـف أو الـسلام أو حتـى الصراع أو العداوة. وهو البوصلة التي ترشد الأفراد والجماعات إلى الخبيث وإلى الطيب من الأعمال والأقوال والأفكار. يستقبح المرء أمـرا أو يقبلـه ويندفع نحوه. والضمير يتشكل يوما بعد يوم منذ اليوم الأول لمولد الإنسان، بفضل الثقافات والخبرات المتوارثة والمكتسبة.

وبالتالي فما أحوجنا الآن للإشارة إلى مصطلح "التربية" التي اختلفوا حوله، فليس هو التلقين اليومي من الكبار إلى الصغار، بقدر أن التربية هي الخبرات المكتسبة والقابلة للتعديل والتبديل إلى الأفضل بفضل سعة الأفق، وعملية التقييم المستمرة.. حتى تزدهر ملكات الإنسان ليحقق إنسانيته التي فطره الله عليها.هناك العديد من الأمثلة والتي أوردها د.سيد عويس (في الدراسة المشار إليها سلفا)، لبيان مظاهر العنف عند الأفراد، وبالتالي تعبر عن أسلوب من أساليب العداوة: " الإثارة"، "التسلط"، "التعبيرات البدنية"، "المعارضة المطلقة"، "مركز الانتباه"، "التمييز ضد"، "المعاملة في غير احترام"، "الأنانية"، "إرباك الآخرين"، "التعبير عن الإحساس بالسمو"، "المزاح العنيف"، "المعاملة النفعية"، "الجزع الزائد عن الحد"، "الاعتداء البدني"، "الوقاحة"، "التحكم التام مع التسليم بذلك"، "تحميل شخص ضعيف خطايا غيره"، "عقاب الذات"، "المعاملة الصامتة"، "إفساد ذات البين"، "لهجة الحديث"، "الإذعان دون اقتناع".أما الأمثلة حول العنف عند الجماعات أو الدول، أورد منها:

"التفرقة اللا إنسانية مثل التفرقة العنصرية بسبب لون البشرة"، "السجون باعتبارها مؤسسة قمعية وليست تهذيبية"، "الحروب على كافة أشكالها المحلية منها والعالمية"، "المؤامرات والدسائس العنيفة"...كما جاء "السلم" في معجم "مختار الصحاح" بالمعاني التالية:

السلم (بكسر السين وسكون اللام)= السلام وجاء في القرآن الكريم (أدخلوا في السلم كافة) وذهب بمعناها إلى الإسلام.السلم (بفتح السين وكسرها)= الصلح.السلام (بفتح السين)= اسم من أسماء الله تعالى.وقد عمق الإسلام مبدأ السلام والدعوة إليه، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:"السلام قبل الكلام"..."إن الله جعل السلام تحية لأمتنا وأمانا لأهل ذمتنا"ومن دعوته لنا في

ميدان الحرب والقتال، إذا أجرى المقاتل كلمة السلام، وجب الكف عن قتاله..
يقول الله تعالى:
"ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا"،"والله يدعو إلى دار السلام"،"لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما، إلا قيلا سلاما".ثم تعدى مفهوم الإسلام للسلام من التوجه العام إلى منهج في مناحي الحياة..فكانت الدعوة إلى الدين بالعقل والإقناع (بالسلام)، ولا إكراه في الدين.

كما أن "السلام" هو جوهر علاقة المسلمين بعضهم ببعض: "إنما المؤمنون إخوة"، "المسلم أخو المسلم".. أما وقد أصبح السلام منهجا للفرد والجماعة، بات المنهج في علاقة الجماعات بعضها ببعض: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، فأصلحوا بينهما، فإن بغت أحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله"..ثم كانت العلاقة بين المسلمين مع غيرهم:
"لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين".. سورة الممتحنة آية 8.

ومن أجل أن يكون "السلام" بين الناس والجماعات، كفل الإسلام جميع حقوق الإنسان..
:حق الحياة.."من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا"..سورة المائدة آية 32
حق صيانة المال.. "يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم"..سورة النساء آية29.
حق العرض.. "ويل لكل همزة لمزة.." سورة الهمزة آية1.
حق الحرية.. والمتمثلة في حق المأوى وحق التعلم وإبداء الرأي وغيره،

يقول الله تعالى:

"إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم، إلا الذين تابوا مـن قبـل أن تقدروا إن الله غفور رحيم"..سورة المائدة33-34

وفي القرآن الكريم العديد من الآيات التي تحـض علـى القـيم العليـا الإنسانية:"ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الـذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم" فصلت 34."وإن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون" النحل-90.

إذا كانت القاعدة هي "السلام" فلا مبرر للحرب في نظر الإسلام إلا فـي حالة الدفاع عن النفس والعرض والمال والوطن، وكذا رد العدوان مع الدفاع عن الدعوة إلى الله.

مما سبق كانت العلاقة بين المقاومة والدعوة إلى السلام.. بمعناها الـشامل (سلبية وإيجابية) ركيزة للحياة الكريمة، كما أن السلام هو جوهر تلك الحياة ومحركها. وفي الدعوة إلى السلام دعوة لإذكاء المقاومة (السلبية) التي تعضد الذات الفردية/الجمعية لترسيخ قيم الانتماء وحب الأرض والجماعة والوطن، وبالتالي رفض العدوان، والتأهب لمواجهته. إن كانت الدعوة للسلام فعل غير عنيف موجه إلى الآخر، فهو فعل في حاجة إلى مجاهدة لتبعات تلك الدعوة، فلا سلام مع ضعف، ولا تكون الدعوة إليه إلا بقوة ترتكن على قوة ماديـة ومعنوية في حاجة إلى مكابدة ومثابرة، ومـن هنـا كانـت الـدعوة إلـى السلام..مقاومة أيضا.

وغالبا ما تكون الدعوة إلى السلم..رائجة وضرورية (ربما)، في حـالتين: أثناء فترات استشعار الخطر أو فترات التهديد مع عدم الرغبة في المواجهة

العنيفة (صراع)، أو حتى أثناء فترات الصراع والحروب..رغبة في إذكاء روح التسامح والقيم العليا (حيث القاعدة للحياة الإنسانية هي السلام).

قصة "سلام الجنرال".. "تيسير نظمي":

"تيسير نظمي" من كتاب القصة، يخلص لفن القصة القصيرة، نشر ثلاث مجموعات قصصية..على الترتيب: "الدهس" –الكويت 1983م – "تصريح سفر للأرض المحتلة" –عمان –ثم "الضوضاء " –عمان. ويبدو أنه من المقلين في تعاملهم مع وسائل الإعلام، بحيث لم تتح فرصة التعرف على المزيد من إنتاجه وجوهر رؤيته التي يبدو أنها تتمحور حول معاناة الشعب الفلسطيني، خصوصا المقيم منهم خارج الوطن.

وإن كانت قصة "سلام الجنرال" تتناول فهم "السلام" من المنظور العبري، إلا أن القصة تبرز أيضا: كيف يتناول فلسطينيو الخارج قضايا سكان الداخل، وكيفية معالجتها فنيا؟؟

فقضية "السلام" عامة/خاصة بالنسبة للفلسطيني، وقد كتبها بلا مكان أو زمان (تاريخي)، كما بدت تصلح لمعالجة مفهوم "السلام" على العموم..وهو ما أكسب القصة نكهة ومذاق خاص. تبدو بلا انفعال أو افتعال على الرغم من سخونة موضوعها.. تقدم نفسها من خلال تجربة مفترضة وبسيطة، إلا أنها معبرة وساخرة ودالة.

نص القصة:

"جزع الجنرال من تكرار مشاهدته لزرقة الحمامة أحيانا، أو زرقة العصفور على زجاج سيارته النظيف اللامع تماما مقابل سحنته تماما وبالضبط عند التماعة ضوء الشمس على شعار خوذته العسكرية، ترجل وتفحص للمرة الثالثة، والنتيجة زرق يدل على أن الطير هذه المرة يأكل البرغل والمفتول، في المرة السابقة كان زرق الطير يحتوي على شئ من

الفريكة، في المرة قبل السابقة كان يحتوي على بضع حبات من العدس، والأمر بات واضحا أن الطير مرسل به من مناطق يسكنها الفلسطينيون.

إذا كان الأمر هكذا، فكر الجنرال، فمعنى ذلك أن الطير إن ترك مواد كيماوية أو تناولها أو حمل معه أسلحة جرثومية فإن الجنرال لا يكون قد أنجز شيئا من وراء بناء الجدار ولا أنجز شيئا بتسلحه المعنوي والاستراتيجي والنووي إذا ما ضاع كل هذا بزرقة لعصفور مستهتر عابث. إما إذا جرى تفجيره عن بعد فسوف يأتي على أنف الدولة إلى مهزلة، كأن يظهر الجنرال في مؤتمر صحفي بأنف مقطوع. جزع الجنرال أكثر عندما تفحص زرق اليوم الرابع الذي سح سحيحا ناشفا بعد أن كان طريا، فشروط في ذات المكان المتعمد في الزجاج المواجه لوجه الجنرال، ودون أن يظهر لبقية الجنرالات الآخرين أسباب انزعاجه جرى تكليفه للشرطة وجهاز الاستخبارات بسرية تامة وعلى نطاق محدود بمراقبة توقيت مجئ الطير وتوقيت تعمده لتوجيه الإهانة تلو الأخرى لمهابة الجنرال، كما من المهم أيضا متابعته من أين يأتي وإلى أين يذهب، ومن يرافقه قبل الإطاحة به والقضاء عليه.

الجندي المكلف أمسك فورا بالناظور وراح يتفحص السماء فوق سيارة الجنرال التي قام بتنظيفها وتلميع زجاجها الأمامي تحديدا مقابل الشعار. كانت السماء رائقة صافية والطيور تناغي بعضها البعض فوق الشجرات، عصافير أخرى كانت تنط على السور وتتقافز في كل الاتجاهات وتحديدا في أعلى السور الواقي تكاثرت العصافير، مما جعل المهمة ليست بالسهلة لمراقبة ماذا يجري خلف السور. هل يقوم الأولاد هناك بعلف العصافير متعمدة لتكسر مهابة علو السور؟ هل هذا عمل تخريبي قيد الإعداد لاستبدال انتفاضة العصافير بانتفاضة الحجارة، ومن ثم انضمام بقية الطيور في زعزعة استقرار الدولة؟ هل أصبحت الدولة غير قادرة على حماية سمائها

ساقط من أصل المصدر

ساقط من اصل المصور

العصفورة وتبرزت فوق أصابعهما المتشابكة!!! لتتجدد مفاجأة لم تكن في الحسبان، كانت هناك في السماء مجموعة من العصافير تطير فوق رأسيهما، ولم تكن عصفورة وحيدة!

كتبت القصة خلال عام 2004م، حيث وطأة المواجهة بين العسكرية العبرية، والشعب الأعزل الفلسطيني، بل بينهما وكل عناصر الوجود والطبيعة على الأرض الفلسطينية، هاهي ذي بينهم وبين عصفورة!!إذا كان السور المشيد ارتفاعه سبعة أمتار وبطول قرابة الألف كيلومتر، يخترق القرية فيمزقها، ويتمدد فيقطع أوصال الضفة الغربية كلها.. هذا السور الخرساني وحده قد يوقع القاص في التسجيلية غير الفنية، ويجعل من العمل الإبداعي مجموعة من الكلمات الحماسية الرافضة. إلا أن المعالجة جاءت بمواجهة الجنرال الكبير مع العصفورة الصغيرة، والتي يبدو أنها تتعمد التبرز على زجاج سيارته اللامع النظيف، وتماما أمام عينيه!! ..حتى انتهى الأمر بالتحدي وكان البراز فوق الكفين المتصافحين، بينما السماء لمجموعة عصافير.

تعد القصة من القص المقاوم المدافع عن الحياة، والداعي إلى السلام، ولكن بمفهوم أعم وأشمل من السلام المحفوف بالخطر، أو السلام المفروض بالقوة، إنه السلام المعبأة بدلالات معنى "أدب المقاومة".

قصة: "بوابة السلام".. "بشرى أبو شرار":

وهي واحدة من قصص مجموعة "اقتلاع" للكاتبة الفلسطينية "بشرى أبوشرار" – تقول في قصتها:"من حي الزيتون... عين الحلوة.. تل السلطان.. مخيم البرازيل.. يتحرك جسمه الصغير بين الأقدام المتدافعة، نحو الأكوام المردومة على رمال يتفجر من باطنها حواف مغبرة لأغطية صوفية كانت تلم أجسادهم في ليال باردة......أوراق تناثرت لدفاتر فتحت للريح

صفحاتها، شاهدة على عيون قرأت وخطت عليها.. واليوم جاءت تبحث عنها..... والمرأة تقترب جبهتها من الحائط الخرساني المتهدم، تمد يدها لأحجار ثقلت في كفها.. تنادي بحنجرة مذبوحة:-قد تكون هنا.. ارفع معي يا باسل...تخرج أوراق تنظرها، تقربها من ملامح وجهها فتتصلب عيناها عليها يقترب منها باسل فتريه ما بيدها قائلة:

-بيتنا في الرملة.. واليوم تهدم هذا البيت...

-أمي لا تنس أنه كان بإذن من وكالة الغوث والأمم المتحدة، ولم تكف أياديهم تلاحقنا.

انظري إليّ جيدا يا أمي قد أكون الآن مسجيا في ثلاجة الخضار مع رفاق لي ينامون على تلال رملية زهّرت واخضرت بأياديهم.. لم تعد تسعهم ثلاجات الموتى في مستشفى أبو يوسف النجار.. صرخ أبو جابر رافعا سقف بيته بكلتا يديه.. قطعة من الصهريج الصدىء..

-هجرة أخرى لنا.. كثير علينا بيت من صفيح.وألقى بما حملت يداه وعاد يدوي بكلماته:

-قد يرضى الآخرون.. قد يرضون.

لمت جوالها الكتاني في صدرها بنظرات راحلة لأبعد من قرص الشمس وراء قوس قزح آفل.وتعود من رحلتها الطويلة لتحط على موطىء قدميها تنظر إلى الصغير وقد عثر على لعبته البلاستيكية وجاروفه.. يجرف به الرمال ويهيل بها في العربة، يتعثر بالأحجار..... ويعود يرفع الرمال بجاروفه يلقي بها في عربته البلاستيكية حيث سيمضي بها بعيدا نحو أمه الراحلة نحو الشرق حيث مدينتها البعيدة..."

تتناول القصة واقعة هدم بيوت من صفيح لبعض الفلسطينيين، شيدت البيوت بتصريح من وكالة الغوث، وهدمت بفعل القوات الإسرائيلية.تجمع الأم أشياءها، والكل ملهوف على شئ ما، الكبار والصغار.. وعلى أمل

يرجونه يعاود الرجال إلى الشرق، إلى هناك، إلى حيث الرجاء، ولكن بـلا يقين حقيقي. التقطت عيون "الكاتبة" طفل بين الأجساد المنهكة الحزينة، سجلت انشغاله بلعبته..العربة البلاستيكية.. وهنا بيت القصيد كما يقولون. كـل مـا فعله الصغير، أن ملأ عربته بالتراب والركام، وجرها أمامه. بينمـا تعلـق الجميع بأشيائهم الحياتية الضرورية واليومية.. تعلق الصغير بتـراب بيتـه، بتراب الأرض. كأنه شاء أن ينقل البيت والأرض إلى حيث يحط ثانية، ولا شئ غير ذلك.

أما وعنوان القصة "بوابة السلام"، فلا حيلة لنا إلا أن نفهم أن بوابة السلام هي الحفاظ على الأرض. فالعنوان دال وموحي وراصد للمغزى.. أو معنى "السلام" عند الفلسطيني. كأنهـا أرادت أن تقـول: لا سـلام إلا باحتفـاظ الفلسطيني بحقه في الحياة على أرضه.

قصة "وفي فلسطين من الموت تولد الحياة".. "سناء أبو شرار":

وهي إحدى قصص مجموعة "جداول دمـاء..وخيـوط الفجـر" للكاتبـة الفلسطينية "سناء أبو شرار" والمقيمة في المملكة الأردنية." وجدت هويتي في أعماق زنزانتي الجديدة، وهويتي الجديدة هي فلسطيني مجاهـد، لـم أدرك المعنى الحقيقي للهوية إلا بعد دخولي هذه الزنزانة!!......وبعد زمن لا أرقام له ولا ساعات يفتح ذلك الباب الصدئ، وتسحبني أيد خشنة إلى مكان آخر، فيرقص قلبي فرحا، لأن حبسي في تلك الزنزانة قد انتهى وأن موعد التحقيق قد أتى واستعد لاستقبال المرحلة التالية.... أوقفوني أمام باب آخر، وقـذفوا بي إلى الداخل، إنها زنزانة طولها متر واحد فقط، وعرضها متـر واحـد، ويوجد مقعد صغير يجب أن أجلس عليه، وأمامي ضوء أحمر قـان يرسـل شعاعا حارا ومزعجا للعيون..... وينقلونني إلى أخـرى بـنفس المـساحة، أجلس على المقعد الصغير، ويوجه جهاز التكييف البارد باتجـاهي، وتـزداد

برودة الهواء، كلما مــرت الــدقائق ازداد ارتعــاش ركبتــي واصــطكاك أسناني..... يفتح الباب الملعون من جديد وينقلونني إلى غرفة واسعة معلق في وسط سقفها ضوء أصفر له رائحة العفن والموت. الجالس مقــابلتي: "لا تبحث عن مقعد... ولن تقف على ساقيك الإثنتين.." ويضحك!.... لم أكــن أتصور من قبل أن للعصا لغة طليقة، وواضحة بتلك الصورة، وأنهــا أشــد تعبيرا عن القسوة والحقد من كل كلمات الأرض.... يعرفون حضور الموت أكثر من أي شخص آخر، يتوقفون عن الضرب ويقذفون بي في أحد أركان الغرفة، ولا ينسون بالطبع رفسي بنعالهم السوداء.... ساعات أو أيام أو ربما سنوات أعتقد أنها مرت منذ أن قذفوا بي في إحدى الزنزانات، واستــسلمت إلى نوم، تتصارع فيه الكوابيس والآلام.... لم أعد أذكر عدد الأيــام التــي مرت، أو الأعوام، أو الساعات فلم يعد للــزمن أي منظومــة خلــف هــذه الجدران.... لأول مرة أعرف ما المعنى الحقيقي للجنــون وأكــره ضــعفي الشجاع أمام قوته الجبانة، ولأول مرة أسمع صوته المليء بالحقد: "هل تريد النوم أيها القذر.."..... ويحضر شخص آخر يلبس ملابــس أنيقــة، واشــتم رائحة العطر الثمين: "هل تنــوي الاســتمرار طــويلا فــي تلــك اللعبــة الصعبة..؟"....

تحسست عظامي فبدت كأنها ملتصقة بذلك المقعــد الخــشن...أحــاول أن أنهض، فيرتطم رأسي بسقف الزنزانة المنخفض... تمضي الساعات، وأقاوم حاجتي الطبيعية... يفتح الباب يوميا وتقذف إلى داخل الزنزانة صينية بهــا شئ ما من الطعام....داخل زنازين الموت، وفي أعماق هذه الألوان الــسود، وديدان المقابر تنبت الحياة من جديد بعروقي... لقد تعمــدوا تــسليط ذلــك الضوء دقائق طويلة... ربما مرت ثلاثة أيــام... لــم يعــد هنــاك شــعور بالوقت..... نزعوا ملابسي، وربطوا قدمي بعضها بــبعض، ثــم حملــوني وعلقوني في سقف شرفة... أصبح جسدي يترنح في الهواء طــوال الليــل،

والبرد قارس ينهشه..... غبت عن الوعي... لم ادر كم مر من الوقت حتى استطعت أن أستيقظ بشكل كامل.... وجدت إبرا مغروسة في يدي ومحلولا معلقا فوق رأسي، ونفس ذلك الوجه الغريب، وذلك اللباس الأبيض.... "

ثم تتابع القاصة في حوار هام بين المعتقل والطبيب، حيث تثار قضية "السلام" ونفس ذلك الوجه الغريب، وذلك اللباس الأبيض، سمعته يقول لي بلهجته العربية المكسرة: "حسنا يا أحمد، إنك بخير الآن. هيا انهض قليلا، ولتحاول شرب الدواء.."... سألته شيئا: "لماذا تصر على مساعدتي ؟ ألست واحدا منهم؟ أم أن شيئا من الضمير الميت يدفعك لهذا؟ هل تريد مساعدتي لكي يستعيد جسدي قوته، وأعود من جديد للتعذيب ؟ انك لا تساعدني، بل تشارك في التعذيب"."أنا أفهم ما تريد أن تقوله، ولكن عملي يجبرني على ذلك..."ربما لديك شئ من الضمير الإنساني، لكنك لا تعرف شيئا عن الضمير الوطني..."أنت معي في غرفة مخصصة للعلاج، لا في ساحة حرب.. لأننا في ساحة الحرب سوف يحاول كلانا أن يقتل الآخر"" وفي غرفة التحقيق لن تكون إلا مخلصا لصهيونيتك...."ثم قال الطبيب الإسرائيلي:

"لأول مرة أقول هذا لعربي، ولكنني لست مع ما يجرى هنا، وأنا أرفض كل هذا العنف، وأؤمن بالسلام بيننا!!""أنت ترى في حلم السلام راحة لضميرك الذي يؤلمك، وأنا أرى به مهزلة كبيرة، فعن أي سلام تتحدث؟ وليبدأ هذا السلام بإزالة غرف التعذيب.. إن تذوق هذا التعذيب لتقرر بعدها هل لهذا السلام أن يولد، أم أنه لن يعرف النور؟".

وتابعت القصة أحداثها بمزيد من التعذيب حتى دمرت شيئا ما في جسد هذا الشاب قد لا يمكن علاجه. وهو ما جعل المعتقل – فيما بعد – لا يتحمل حياة الاستقرار في منزله، وخرج للجهاد ثانية ضد الاحتلال.والآن ترى كيف يرى

العربي المعتقل تحت التعذيب والطبيب الإسرائيلي المعالج "السلام"؟ كلاهما نطق بالسلام مصطلحا وكلمة ولكل منهما رؤيته:
يعبر الفلسطيني المعتقل عن دهشته، أن يفيق من الإغماءة بعد التعذيب ليجد أمامه طبيب إسرائيلي يعالجه؟يسأل مستفسرا: هل هـو "الـضمير"؟! إلا أن الكاتبة اشتقت صفة جديدة استبدلت بها المعنى المباشر للـضمير..ألا وهـو "الضمير الميت"، "إن الطبيب الإسرائيلي يحمل ضميرا ميتا، يدفعـه لعـلاج العربي حتى يعاود رحلة العذاب الجديدة!". وهى رؤية تحمل في طيها عـدم الثقة في سلوك الطبيب وإن بدت لعلاجه. لذلك أخبره: "إنك لا تساعدني، بل تشارك في التعذيب" حيث يتجدد التعذيب بعد الشفاء.بينمـا يـرى الطبيـب الإسرائيلي، أنه طبيب مخلص لعمله، وليس في الأمـر اسـتدعاء لمعنـى "الضمير"، بل هي الطاعة لأوامر القادة العسكريين، حيث يعمل في الجـيش الإسرائيلي.

مجددا يسعى المعتقل أن يجد تفسيرا: "ربما لـديك شـيء مـن الـضمير الإنساني، لكنك لا تعرف شيئا عن الضمير الوطني"كأنه بذلك يفصل الطبيب كونه إسرائيليا وكونه صاحب مهنة إنسانية..وهى قـضية قابلـة للمناقـشة، وتعبر عن سعة صدر وتفهم لبعض الإسرائيليين (حسب رؤية القاصة).. إلا أن المعتقل ردد مقولته في أسلوب دهش معبرا عن الحيرة، مما يشير إلـى عدم الثقة عند الفلسطيني.أما الطبيب الإسرائيلي فلا يرى في سلوكه ما يسبب الدهشة، وبرر سلوكه بقوله: أنت معي في غرفة مخصصة للعلاج، لا فـي ساحة حرب".عاد وعبر الطبيب عن رفضه لكل هذا العنـف فـي معاملـة المعتقلين الفلسطينيين..حيـث أنـه يـؤمن ب"الـسلام" بـين الفلـسطينيين والإسرائيليين.عاد وفسر الفلسطيني سلوك الطبيب بأن مفهوم "السلام" عنـد الطبيب "ذاتي" محدد بإطار إراحة الضمير، وهو مفهوم ضيق للـسلام، ولا يعبر عن الرغبة في السلام الحقيقي والشامل. عاد وأكد الفلـسطيني علـى

"السلام" الحقيقي بقوله: "ليبدأ هذا السلام بإزالة غرف التعذيب..إذن مفهــوم السلام عند الفلسطيني ارتبط بتوفير الحقوق المدنية والحق في الحياة المستقرة للشعب الفلسطيني..(وهي رؤية تضاف إلى ما سبق من الرؤى فــي مفهــوم السلام).

رواية: "العربة والليل".. "عبد الله تايه":

تعد شخصية "أبراهام" وابنه "موشيه" في رواية "العربة والليل" مــن أهــم الشخصيات في الرواية الفلسطينية، لما تعبر عنه من آراء حول جوهر قضية السلام في القضية الفلسطينية. ربما يرجع ذلك إلى خصوصية الزاوية التــي تناولها الروائي.. "أبراهام"، الأب وهو اليهودي العراقي الذي طرد منها إلى إسرائيل، من فقراء الإسرائيليين، كما كان من فقراء العــراق. يتقابــل مــع "عزيز" العربي الفلسطيني الذي طرد من داره أيضا، كما أنه فقير من فقراء فلسطين قبل، وبعد حزيران عام 1967م عملا معا كعمال بسطاء في البناء، وإن بدا أبراهام أعلى درجة عن عزيز..إلا أنهما معا يعانيان مــن صــاحب العمل الشرس الفظ.

وظف الروائي الشخصيتين في لقاء مبكر بينهما (بالتــذكر) فــي بــدايات الرواية، وكشف الكثير عن وجهة نظر –جديدة ولم تطرح مــن قبــل فــي الإبداع الفلسطيني– نحو "السلام". وقد بدت قضية السلام جذرية وجوهريــة في بؤرة القضية برمتها.. يبدو أنه من الممكن (حسب رؤيــة الشخــصيتين) إمكانية إقامة سلام بينهما – بين الفلسطينيين والإسرائيليين – لو تفهم الجميع رؤية عمال وفقراء الشعبين.

دعونا نقترب من حوارهما في الفصل الأول من الرواية : (حيث يتذكر أبو عزيز) "العربة التي تنقلنا إلى" بئر السبع " تشق ظلمة الطريق، أُضيء نــور خفيف في المؤخرة، أنزل موشيه فوهة مدفعه بينما لا يزال الحارس الآخــر

يصوب نحونا.. وينظر إلى موشيه (وهو ابن أبراهام) نظرات تعنيف لأنه لا يأبه بتشديد الحراسة، نبيل خضر وحسن رباح وفتحي الراعي يجلسون بجواري، الدخان يملأ العربة، موشيه والحارس الآخر في مواجهتنا.. أعضُّ بأسناني العربة، أهرسها من المحرك حتى آخر قطعة..

الأفواه تطاردني، حليمة، عزيز، محسن، والطفل الصغير لا زال يحبو، عزيز يقلقني دائمًا فهو يحرض الطلاب على التظاهر. يتركني في دوامة كلما دفع أمامي بسؤاله الكبير..

ــ ألست صاحب حق ؟! ألم تكن ثائرًا في أحداث 1936م و 1948م ؟! فلماذا تنكر عليّ هذا الحق ؟ لماذا لا تكون لنا دولتنا مثل الجميع ؟

يطلب المناهيل مني ومن أبراهام زميلي في العمل أن نحفر هنا وهناك، ويطلب مني أبراهام بلغة عربية جيدة ليمونًا، وبرتقالاً، وملوخية، أُحضرها له من سوق" فراس " في غزة بأثمان رخيصة، ثم صار يُوكِل إليّ الأعمال الخفيفةَ أما إذا شاهد صاحب العمل قادمًا بعربته فإنه يرسم ملامح الصرامة والجد على وجهه، ويطلب مني ومن العمال القيام بأعمال الحفر وحمل الطوب، ولا يستطيع هو الآخر البقاء ساكنًا، بل يبدأ التنقل هنا وهناك محاولاً الإصلاح والترميم حتى يغور صاحب العمل المناهيل الكبير على حد تعبير أبراهام... بدأت أحفر وهو يساعدني، ارتفعت حرارة الشمس وتعلقت فوق ظهرينا، ونزلت قطرات العرق تبلل وجهينا وتتساقط مختلطة بآثار الطين. تبلل ظهر قميصي، وارتفع لهاثنا من الحر، توقفت، وبدأت في تدخين سيجارتي، وبعد أن ناولته سيجارة قال لي: "خذ نفسًا."

سألته:ــ كيف العراق يا أبراهام ؟ ــ كويس.. توف . ــ ولماذا خرجت من العراق ما دام توف ؟ــ ليس بخاطري. ــ أين سكنت عند وصولك إلى البلاد ؟ ــ أعطوني بيتًا في "يفني". " يبنا " !!غامت الدنيا في عينيّ، شربت الغيم وأمطرت. تسربت الشمس داخلي، فتبخر العرق المتلملم على جلدي،

وترسبت الملوحة اللاذعة في عينيّ، والذكرى تدق، تدق، تدق.. اللعنة على كل الأشياء الفاسدة وليكن الفناء.. من العراق ويسكن في "يبنا" ؟! في مسقط رأسي الذي تركته مرغمًا، ربما أقاموا بيته الصغير فوق أرضي، مكان الجميزات، وربما جلس في العليّة التي بنيتها فوق بيتي، وتنسم عبير البرتقال، وزهر الليمون الآتي من وراء التلة القريبة، حيث ترتفع مئذنة الجامع.. هناك كنا نلعب صغارًا، ونقذع ثمار التين الشوكي.. سألني أبراهام: "أنت مرة قلت لي إنك من "يفني" لماذا خرجت منها ؟! عرب كثيرون لم يخرجوا من اللد والرملة." ، "طردونا بالقوة."،" كنت مبسوط في " يفني" ؟!" ، " بالطبع. مسقط رأسي ومسكن الآباء والأجداد.. أيوجد أحد لا يكون مبسوطًا في أرضه وبيته وقريته وبين أهله.."، "وأنا كنت مبسوطًا في العراق. "والآن لا مكان لي إلاّ هنا." ، "هذا ليس معناه أن أرضك هنا."،"لكن أنت خرجت من " يفني "بالرصاص. " ، " كل العرب الذين خرجوا من هنا يقولون أنهم أُخرجوا بالقوة."، " صادقون. الجميع يعرف أنهم صادقون. كنا فقراء ولم نستطع الحصول على السلاح الكافي للدفاع عن النفس.. أنا بعت مصاغ زوجتي واشتريت فشك، وأعرف كثيرين باعوا دوابهم التي يعتمدون عليها في زراعة أرضهم واشتروا الفشك.. وحين نفد لم نستطع الحصول على غيره، والحكام العرب خذلونا.. تركونا نواجه طرف المسمار بالكف.. والكف الأعزل حين يلطم المسمار ينزف بلا جدوى..

ـ أنا أفهم يا أبو عزيز.. لكن لا أفهم معنى أن تُخرجني منها..

ـ أنتم تلاحقوننا حتى في المخيمات، تصوّر !! عندكم يستكثرون علينا العيش في المخيمات فيريدون إخمادنا.. كل شئ يفعلونه بالقوة، نحن نرفض حياة المخيمات، نريد دولتنا، أنتم ترفضون الاعتراف بحقوقنا. لكن سيأتي اليوم الذي تكون لنا فيه دولتنا المستقلة..

ـ عندنا من يتصورون أنهم يمكن أن يأخذوا كل شئ بالقوة لكني لا أؤيدهم.. كثيرون مثلي لا يؤيدونهم.. ابني موشيه جندي الاحتياط لا يؤيـدهم.. أنـتم تموتون.. ونحن نموت.. فلماذا لا تكون لكم دولتكم..

ـ تريد أن تُظهر تعاطفك معي كي تقنعني ببقائك في يبنا وبقائي في المخيم؟

ـ أنت تعرف أن تعاطفي معك حقيقيًا، وأنا باق رغمًا عنك فليس باستطاعتي العودة إلى العراق، ولا خيار لي سوى أن تبقى أنت وأبقى أنـا.. ثـم هـل بوسعك أن تطرد المناهيل الكبير الذي يسيطر على كل شئ ؟! مئات الكبـار يطردوننا متى شاءوا ويستخدموننا متى شاءوا.. رغبتي أن يطردوا.. تمامًـا مثل رغبتك، نحن عشنا مع العرب ونعرفهم جيـدًا.. ونـستطيع أن نتفـاهم معهم، ويمكن أن يتفاهموا معنا.. أما هؤلاء الكبار فيستعرضون علينا وعليكم عضلاتهم، إنهم لا يفهمون إلاّ لغة العنف والمال والسيطرة..

ـ انتصار وهزيمة، قوي وضعيف، هذا ما يوحي به استعراض العضلات، عندنا مثل يقول "ما يجيب الرطل إلا الرطل ونص".. أما أمثالي وأمثالك من الفقراء فيجب أن يكون لنا قلب واحد ويد واحدة.."

..."أبراهام أخبرني أنهم أُخرجوا بالقوة، وأنا أخرجت بالقوة، هو يحـب بغداد وأنا أعشق يبنا التي امتزجت بها، ولسعني نحلها، أحب يبنا لأني عندما أقول من يبنا ولست فيها أحس بجزع، وبأني نصف يبحـث عـن نـصفه، وأخذت أسأل أبراهام أسئلة كثيرة.. من يا أبراهام ؟ كيف ؟ متى ؟ لمـاذا ؟ سحب آهة من قاع قلبه، وأخذ يحدثـني..

"المطر يسقط غزيرًا فوق بغداد، اشتدّ البرد حتى التحم بـالعظم.. أصـوات طرقات عاجلة على الباب، نهضت أفتح، قابلتني اللكمـات، وتـشقلبت مـع الأثاث، تكسرت أشياء كثيرة، وانتشرت عبارات التهديـد والوعيـد. خـرج الجنود، وفي الصباح نزل والدي إلى حانوته كالعادة فمنعوه من دخوله، لـم ننتظر أكثر. البقاء معناه مزيد من المهانة والتنكيل، لا بدّ من المغادرة، ولـم

تمض أيام حتى كنا على متن إحدى الطائرات المغادرة إلى فرنسا، ومن ميناء مرسيليا توجهنا إلى حيفا.. مات والدي بعد أسابيع من وصولنا.. ثم اكتشفت أن رحيلنا ورحيل عشرات العائلات كانت خطة اشترك فيها أكثر من طرف مستهدفين تعزيز الدولة الجديدة.

صمت أبراهام. وجهه حزين للغاية، أخبرني عن ابنته المريضة بالسرطان، فعرفت لماذا صار يكثر من الشرود في الأيام الأخيرة.صوت بوق عربة اندق في آذاننا:ـ المناهيل الكبير..قال باهتمام.تلفت في ساعته، وصل المناهيل ورطن بعصبية زائدة، امتدت يده إلى الساعة مرات كثيرة، احمّر وجهه فوق احمراره من الغضب حتى صار مثل حبة البندورة، وظهر الشر في عينيه وأنا أهتف.. يا منجي.. يا رزق العيال.. أولادي وأولاد أبراهام ينتظرون اللقمة والدواء، ولم ينفع كل الدعاء فقد انصرف غاضبًا بعربته بعد أن رطن ولم أفهم شيئًا، نظر أبراهام إلىالأفق البعيد وقال في هدوء لم أعتده.

- أنت يا أبو عزيز مطرود (قمارنو) وأنا مطرود معك.

وفي نهاية اليوم ركبت حافلة العمال مطرودًا... احتكاك عجلات الحافلة بالإسفلت في طريق عودتي مطرودًا يضطرب بشدة في أذنيّ، يثيرني، أغلقت زجاج النافذة، انخفض صوت الاحتكاك، وفلق رأسي ضجيج العمال المتكومين والمعلقين على الماسورة المثبتة في سقف الحافلة، يثرثرون، يدخنون، يبصقون آلامهم.. الرغبة في الصمت تجتاحني، يا رزق العيال، يا قاطع رزق العيال، يا مزود العيال.. يا لعنة العيال.. قمارنو، وأنا مطرود مثلك.. صدقت يا عزيز.. الأغنياء يطاردوننا، ويمتصون دمنا ولحمنا قبل أن يقذفوا لنا بلقمة الخبز.. هنا وفي الداخل.. ماذا نفعل يا عزيز ولقمة الخبز صعبة؟

- النضال ضدهم يجب أن يكون في كل مكان، وهو نضال شاق وطويـــل، وهؤلاء الذين يقذفون لكم بلقمة الخبز سيتوقفون عن ذلك حالما يعرفون أنه لم يبق فيكم ما يُمتص.

صدقت يا عزيز، جميل أن يخرج من صلبي رجال أكثر وعيّـــا منـــي.. ماذا سيقول عزيز إذا عرف أني طردت من عملي ؟ ومع أبراهام ؟! سيعود يؤكد أقواله لي. كيف سأطعم الأفواه المفتوحة، سأعود للبحث عن عمل مـــن جديد.. لا أحد يموت من الجوع.. سنشقى.تحفى قدماي وأنا أراجـــع مكتـــب تشغيل العمال، وأبراهام ماذا سيفعل بابنته المريضة، سيبحث هو الآخر عن عمل جديد مع مقاول آخر.. سنشقى.ونعاني. .. حتى نحصل على حقوقنـــا. أفقت على صوت جاري في المقعد:" مالك يا أبو عزيـــز اليـــوم ؟" ، "الهـــم بيسَكِّت اللي أجعص مني.. طردني المناهيل."، "أبراهـــام؟"، "لا. المناهيـــل الكبير، طردني وطرد أبراهام." ، "أن يطردك فأمر عادي.. لكن أبراهـــام.. إنه يهودي مثله."

- وماذا يعني طرد أبراهام عند المناهيل الكبير، إنه قادر عليّ وعلى أبراهام وعلى كل العمال، ثمّ إن أبراهام ليس من طينة ذلك المتعجرف.. إنه فقيـــر مثلنا، مظلوم مثـــلنا، ومضطهد وإلا لما استطاع طرده."

تلك الوقفة مع رؤية "عبدالله تايه" تبرز فكرة: أن السلام ممكن بالتفـــاوض، لكن على أساس الفهم المشترك، وأن هناك جانبا من الإسرائيليين يمكـــن أن يتعاطف مع فكرة السلام.

هذه دعوة للاطلاع على بعض العناوين الروائية الفلسطينية: "وفود النعمان على كسرى أنو شروان للروائي محمد عزة دروزة ، عام 1912م"..الـوطن المحبوب للروائي جميل حبيب البحري، عام 1923م".. "صراخ فـي ليـل طويل للروائي جبرا إبراهيم جبرا، عام 1955م".. "الفردوس السليب للروائي سمير عبد الرازق القطب، عام 1963م".. "فداء فلـسطين للروائـي رجـب توفيق الثلاثيني، عام1964م"، "المجموعة 778 للروائي توفيق فياض، عـام 1966م"، "تاسف الجسور للروائي عاطف أحمد حلوة، عام 1969م".

إنها بعض الأعمال الروائية التي رصدت رحلة الكفاح الفلسطيني، وان لم تلق الدراسات المناسبة، فهي في حاجة إلى البحـث والتحليـل.. وأسـتطيع الادعاء بأن الروايات التي كتبت بالقلم والقريحة الفلسطينية، خـلال القـرن الماضي، والتي حصرها "د.حمدي السكوت" في "ببليوجرافي الرواية العربية" ب 267 مائتان وسبع وستون رواية حتى عـام 1995م. ترصـد التـاريخ الحربي والمقاوم الفلسطيني، وربما أكثر كثيرا من مجمل الروايات العربيـة التي عالجت "التجربة الحربية" والمقاومة في رواياتها.

قد يرجع ذلك إلى خصوصية التجربة الفلسطينية، ومع ذلك فهـي حقيقـة، مهما كانت الأسباب. خصوصا بعد ضم تلك الروايات التـي نـشرت بعـد الانتفاضة الثانية (عام2000م). رصدت "الببليوجرافي" في وقفة سريعة مـع الرواية الفلسطينية، فكانت للروائيين: "جبرا إبراهيم جبرا"، "إميل حبيبـي"، "غسان كنفاني"، "توفيق فياض"، "يحي يخلف"، "سحر خليفة"، "ليانة بـدر" ، "إبراهيم نصر الله".

يؤرخ للرواية الناضجة الفلسطينية، برواية "مـذكرات دجاجـة" للروائـي "إسحاق موسى الحسيني"، وهى رواية رمزية، عالج فيها الروائـي قـضايا الوطن بروح مرحة وبالحكمة. فقد تسلل الأعداء إلى مأوى الدجاج، ويفكـر

الدجاج صاحب المأوى في المقاومة، فتنصحه الدجاجة الحكيمة بالنكوص لعدم تكافؤ قوتهم وقوة الأعداء، وينتهي الأمر باستيلاء الغرباء على المأوى، ولأن المأوى لا يتسع للغرباء والدجاج صاحبه.. تقترح الدجاجة الحكيمة أن ينتشروا في الأرض ويحثوا الجميع للخضوع للحق!، ويرضى الباغي بذلك وتصبح قضية الدجاج المظلوم جزء من قضية أكبر!!

(رواية "رجال في الشمس" لغسان كنفاني، يؤرخ بها الرواية الأعلى فنيا (عما قبلها في الرواية الفلسطينية، ونضجت بها الرواية بعامة).أما "جبرا إبراهيم جبرا" (1919-1994م)، كانت روايته الأولى "صراخ في ليل طويل" معبرة عن كاتب جاد جديد وملتزم، حتى كانت روايته "البحث عن وليد مسعود" عام 1978م التي رسخت اسمه في عالم الرواية الفنية العربية.. حيث يختفي وليد مسعود بعدما ترك في مسجل السيارة ما يشبه الهذيان، بعد أن فقد ابنه الفدائي. وهو ما سبب له ألما شديدا، ووضعت الأم في مشفى الأمراض العقلية حزنا على ولدها الشهيد. وتسرد الرواية حياة الفلسطيني في المنفى، والتي تتسم بالمغامرة، وربما بالحياة الرغدة..إلا أن الألم لا يبرحه بسبب ما يعلمه عما يحدث في وطنه.ثم "إميل حبيبي" (1921- 1996م)الذي ارتبط اسمه برواية متميزة في الرواية العربية "الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل". وقد اتسمت بالشكل الجديد على الرواية العربية، ومزج الروائي بين المقامة القديمة والخيال العلمي، فيما يستشهد بالشعر العربي القديم، والكثير من أقوال العامة في فلسطين. ذلك مع معالجة ساخرة لقضية جادة. فيما يعد "حبيبي" قفزة سردية في النثرية الفلسطينية، من حيث التنوع، والبساطة مع التراكيب الفنية الجميلة..أولى مجموعاته القصصية "سداسية الأيام الستة" قفزة سردية.

وغالبا ما يربط النقد بين "حبيبي" و"توفيق فياض" على كونهما من الجيل نفسه، ويحملان ملامح أسلوبية مشتركة، وكل منهما كتب القصة القصيرة

والرواية والمسرحية. وقد نـشر "فيـاض" الروايـات "المـشوهون"، "وادي الحوارث"، و "أولاد الحواري"..كما نـشر مجموعـات قـصص "الـشارع الأصفر"، وحبيبتي ميليشيا"، البهلول"...وغيره.

يعد "غسان كنفاني" رائد الرواية الفلسطينية المعاصرة، بما تحمل أعمالـه من قيمة فنية وفكرية، وحيث كان مشروعه الروائي اسـتكمالا لمـشروعه السياسي المقاوم. "روايته "رجال في الشمس" التي جعلت من فكرة "المـوت من أجل؟!".. قضية، استكملها برواية "ما تبقى لكم" التي جعلت من المـوت قيمة من أجل الحق والجماعة، ثم رواية "عائد إلى حيفا"، و"أم سعد" التي قتل فيها "سعد" الجندي الإسرائيلي، حيث بدأت المقاومة تأخذ شكلاً فاعلاً علـى الأرض والواقع (عام 1969م).

ويمكن أن نشير إلى مشروع "سحر خليفة" الروائي، "الصبار" حول عمـال فلسطينيين يعملون في إسرائيل (في حوار صحفي أفادت الروائية، أنها كتبت تلك الرواية، ردا على استفزاز الكاتب "أحمد بهاء الدين" في حينه، وقد هاجم العمال الذين يعملون بإسرائيل، بينما ترى "سحر" أن الواقـع وشـدة وطـأة الحاجة عذرا مقبولا..). ورواية "عباد الشمس" التي تعبر عن مرحلة اصطدام الثورة بالواقع وانزياح الرومانسية. ورواية "مذكرات امرأة غيـر واقعيـة" تعبيرا عن الحركة النسوية وبداية تفعيل الحركة النسوية والمقاومة في مقابل الواقع وشراسته. فيما ركزت رواية "باب الساحة" على الانتفاضة الأولـى، وقد عبرت عن كونها عشوائية وبلا قيادة وغير منظمة. فيما كانـت روايـة "الميراث" رصدا لأصداء اتفاقية أوسلو: "رصدت أوسلو حين سرنا كالغنم بلا راع، من غير هدف، وقصدت أن أحكي قصة شعب تهزمه هزائمه على كل صعيد، هزيمة القائد في الثورة، هزيمة الوالد في الأسرة، هزيمة الأبناء فـي عالمهم بهذا الميراث". ثم رواية "صورة وأيقونة وعهد قديم" حيث البحث عن

حب ضائع بضياع القدس..ورواية "ربيع حار" التي تروي قصة شاب من هذا الجيل، حين ضاع الأمل.

وإن عُرف عن "ليانة بدر" كتابتها للشعر وقصص الطفل، إلا أنها كتبت القصة القصيرة والرواية. روايات: "عين المرأة"، "نجوم أريحا"..ومجموعات قصص: "شرفة على الفكهاني"، "قصص الحب والملاحقة"، "جحيم ذهبية". وتعد رواية "نجوم أريحا" من تلك الأعمال التي رصدت الواقع النضالي الفلسطيني.

أما "يحيى يخلف" فقد نشر في الرواية: "نجران تحت الصفر"، "تلك المرأة الوردة"، "تفاح المجانين"، "نشيد الحياة"، "بحيرة وراء الريح"، و"نهر يستحم في البحيرة" ..ومجموعتي قصص: "المهرة"، "نورما ورجل الثلج". وخصوصية الروائي ترجع إلى خصوصية تجربته الحياتية المعاشة، حيث التحق للعمل مدرسا باليمن. فجاءت أعماله على قدر المتابع الملتزم والمتأزم بقضية وطنه.. خرجت رواياته الأربع الأولى تنديدا للقهر..فكانت الأولى حول تجربة الثورة اليمنية وتنديدا للعالم الخرافي الذي يعيشه شعب اليمن، ثم انتقل إلى المخيم الفلسطيني في روايته الثانية وتطلعه إلى الحلم بالحصول على القوة وإشباع الرغبات، بتعلق ذلك الصبي بامرأة محنكة خبرت الحياة، أعطاه القوة وأعطته الطمأنينة / الأمل. ثم كانت روايته الثالثة التي تعمق فيها حياة المخيمات، وكيف أنها قهر دائم، وتحايل على الجانب الآخر من الفلسطينيين للحصول على الإعانات. وفي روايته الرابعة "نشيد الحياة" زاوج بين البعد الاجتماعي والسياسي في حياة أبطاله، وكانت المواجهات العسكرية هي الحل والطريق.

هناك أيضا العديد من الأسماء التي بدأت وأضافت إلى سيال النضال الفلسطيني (قبل الانتفاضة)، ومنهم من استمر بعدها: "نبيه القاسم" وله مجموعة قصص "آه يا زمن".. "محمد علي طه" وله المجموعات القصصية

"لكي تشرق الشمس"، "سلاما وتحية"، "جسر على النهـر الحـزين"، "عائـد الميعاري يبيع المناقيش في تل الزعتر"، "ويكون في الزمن الآتي"، "النخلـة المائلة"، أما مجموعته القصصية "وردة لعينـي حفيظـة" عـام1983م فقـد صادرتها السلطة الإسرائيلية واعتقلت الكاتب بسببها.. "محمـد نفـاع" ولـه مجموعات قصص "العودة إلى الأرض"، "الأصيلة"، "ودية"، "ريح الـشمال"، "كوشان"، "مرج الغزلان"، "الذئاب"، "وادي اليمـام"، "خفـاش علـى اللـون الأبيض".. "محمد وتد"، وله الروايات "فزاع المقاثي" و"زغاريد المقاثي" وهى نفسها التي أعيد نشرها بعنوان "زغاريد الانتفاضة"- ويذكر للكاتب أنه كتب أول مسرحية كتبت بالعبرية "تعايش".. "رياض بيدس" وله رواية "الهـامش"، ومجموعات قصص "الجوع والجبل"، "المسلك"، "الريح"، "تخطيطات أوليـة"، "صوت خافت"، "الصغير"، "باط بوط"، "شباك فـانكوخ الأصـغر".. "رافـع يحيى" له روايتان "بيت من ورق" و"الطريق إلـى الـصباح"، ومجموعـات قصص "درب الآلام"، "انتظاركم قـدري"، "القنـديل والـريح"، "الحـصان الأبيض"...

الأسماء أعلاه مجموعة من أدباء فلسطين داخل إسرائيل.أما مجموعة أدباء قطاع غزة والضفة: "هارون هاشم رشيد" وله رواية"سنوات العذاب".. "معين بسيسو" وله قصة "باجس أبوعطوان: مات البطل، عاش البطل".. "علي هاشم رشيد" وله مجموعتي قصص "رصيف الدموع"، و"سر الراعي".. "عبد الكريم السبعاوي"، وله الروايات "العنقاء"، "الخل الوفي"، والغول".. "علي الخليلي"، وله روايتان "المفاتيح تدور في الأقفال"، و"ضوء في النفق الطويل".."محمود شقير" وله مجموعات قصص "خبز الآخرين"، "الولد الفلـسطيني"، "طقـوس للمرأة الشقية"، "ورد لدماء الأنبياء"، "صمت النوافذ".. "أسعد الأسـعد" ولـه رواية "ليل البنفسج" ...

ويجيء الجيل التالي الذي فرض وجوده الأدبي على الساحة الإبداعية القصصية والروائية الفلسطينية، ولم ينل من الدراسة لأعماله ومن الإعلام ما يستحقه، وهو غالبا ما ارتبطت أعماله بتجارب "الترانسفير" التي سبقت الانتفاضة الأولى "انتفاضة الحجارة أو الحجر"، ثم كانت الأعمال المتلاحقة للانتفاضة الأولى التي اشتعلت في 1987م، ثم الثانية في عام2000م.تلك التي توافقت أو اختلفت مع معاهدة "أوسلو"، وعرضت للحياة الجديدة تحت ظل السلطة الفلسطينية.

لعل أغلب ما عرضنا من نماذج (في الجزء السابق) ارتبط بتلك الأسماء، لأسباب موضوعية، وهى موضوع الدراسة مع خصوصية التعبير الجديد والذي يتبدى واضحا في الرؤية البانورامية للمعالجات الفنية في تلك الأعمال في إجمالها.أما تلك الأسماء على سبيل الاسترشاد لا الحصر، سواء داخل غزة والضفة أو خارجها: " عزت الغزاوي ، حسن حميد ، عبدالله تايه ، رافع يحيى ، غريب عسقلاني ، تيسير نظمى ، بشرى أبوشرار ، سناء أبوشرار ، زكي العيلة ، أحمد رفيق عوض ، طلعت سقيرق ، جاردينيا الحمران.

ما أعطته الانتفاضة للقصة والرواية:

لا تعد "الانتفاضة" حربا بالمعنى الحرفي أو الاصطلاحي، فالحرب تكون بين جيشين منظمين، حيث مجموعات الجنود المحترفة والمدربة تدريبا مهاريا خاصا، وقد تسلح الجنود -على الطرفين- بالمعدات المناسبة، بداية من التسليح الشخصي، حتى استخدام المعدات المعدة سلفا لإحداث أكبر أثر مدمر، للأفراد والمنشآت.. بينما "الانتفاضة" بدأت وانتهت وتجددت على سلاح "الحجر"!، فيما تمكن البعض من إنتاج بعض الأسلحة البسيطة، مع

استمرار الانتفاضة، ولا تعد تسليحا حقيقيا وفعالا، مقارنة بتسليح الجيش الإسرائيلي.

كما قد تكون الحرب لأسباب عادلة "الحرب العادلة"، وقد تندلع لأسباب أخرى غير عادلة، فيما بدت "الانتفاضة" كأنها ثورة شعبية في مواجهة الدبابات والقنابل، من أجل "التعبير" عن رفض كل الممارسات التعسفية والشرسة على الأرض الفلسطينية.ويعتمد الهيكل التنظيمي للجيوش على الشكل الهرمي، بداية من الجماعة (عشر أفراد وقائد"، حتى قائد أعلى للقوات المسلحة، وهو غالبا رئيس الدولة).

لقد شكلت الانتفاضة شكلاً من المواجهة والعنف، هو رد فعل في جوهره ضد آلة الحرب الإسرائيلية.. إنها "مقاومة" إذن. والمقاومة في جوهرها مشروعة وعادلة.

في ضوء ما سبق، تبدو الانتفاضة شكل من أشكال المقاومة الشعبية، ولن نجردها من جوهرها، ونصف القائمين بها، على أنهم "سكان المخيمات" فقط، وكأن المقاوم الفلسطيني بالعموم، هو فقير فلسطين (وانتهى الأمر). بل تعد الانتفاضة "حالة جماعية..تعبيرا عن الرفض، ومحفزة عليه " عاشها ويعيشها كل أفراد الشعب الفلسطيني (وهو ما بدى جليا في الإبداعات القصصية والروائية).

لم تعد "الانتفاضة" محددة بملاحقة الجندي الإسرائيلي المسلح للأطفال على الطرقات وفي الأزقة والحارات. انتقلت إلى مواقع الزجر والاستفزاز في كل مكان.. عند الحواجز والمعابر وحول المستوطنات.. واتسعت. أما وقد تعددت الصور النضالية للشعب الفلسطيني طوال رحلة كفاحه.. فقد أضافت الانتفاضة صورة لم يعهدها كفاح الشعوب من قبل، وهي "العمليات الاستشهادية"، ولن نصفها بالانتحارية إلا مجازا، ونضيف على اصطلاح الإعلام الغربي (غير الفاهم لجوهر الاستشهاد عند العربي) حيث يطلق عليها

"عمليات انتحارية"، موافقة بمعنى ما، ألا وهو قمة الشعور باليأس والإحباط وقلة الحيلة..نعم، بهذا المعنى فقط تعد انتحارية!

كما أضافت الانتفاضة صورة "التصفية الجسدية" لبعض الرموز السياسية، وهو ما تم بصورة أكثر شراسة من آلة الحرب الإسرائيلية، نحو رموز ساسة فلسطينيين.. بداية من النشيطين الشباب إلى قادة وزعماء سياسيين !!

ثم أضافت الانتفاضة، وكأنها أشعلت حمية المرأة الفلسطينية. لم يعد دورها محدودا بحث رجلها أو ابنها على الكفاح من أجل الأرض والعرض.. أصبحت عضوا فاعلا، بداية من التصدي للجنود بأصواتهن وأجسادهن، وقت الاقتحامات والمداهمات.. حتى المشاركة في العمليات الاستشهادية بعدد لافت للانتباه وأكثر منه الاعتقال في السجون.

لقد أعطت الانتفاضة الكثير من الصور والتجارب، ربما ما كان خيال الشاعر أو القاص أو الروائي بقادر على استحضارها أو تخيلها...هاهي ذي الأسيرة الفلسطينية الشابة "ميرفت أبو دولة" فور الإفراج عنها، تقول:"إنها فرحة منقوصة، سأبقى أعيشها حتى تحرري من جحيم السجون الإسرائيلية.. لأن الاحتلال نقلني من سجن كبير إلى سجن آخر أصغر منه، لتستمر معاناتي".وتتابع:"لا توجد كلمات تصف ظلم وقسوة الاحتلال الذي حرمني مشاعر الفرح والسعادة بتحرري من القيود وظلام السجون.. إذ قرر فرض الإقامة الجبرية على منزلي الكائن في مدينة القدس المحتلة، وحتى إشعار آخر".. "بموجب هذا القرار يحظر عليّ مغادرة المنزل من الساعة السادسة مساء وحتى السادسة من صبيحة اليوم التالي، مع إلزامي بمراجعة الحاكم العسكري كل أسبوع والتوقيع لديهم"..

"أي معنى للحرية في ظل هذه القيود التي ستبقى تذكرني بأصعب لحظات العمر خلف القضبان"..لقد أمضت الأسيرة ثلاثة وثلاثين شهرا في الاعتقال، أنجبت خلالها طفلها الأول (وائل)!!في ليلة 29-5-2002م. وقد قبض عليها

بعد ثلاثة شهور من زواجها بالمواطن الفلسطيني "أيمن أبو دولة"..الذي قال بدوره:"لم نكد نفرح بزواجنا حتى فوجئنا بعشرات الجنود يقتحمون المنــزل ويقومون بتفتيشه ومعاملتنا بشكل سيء، بعد رفضهم الإجابة على تساؤلنا" تتابع الأسيرة "ميرفت":"قيدوني أمام زوجي، وسط الشتائم والكلمات النابيــة والإهانات، ثم نقلوني إلى سجن "المسكوبية"، حيث عشت لحظات رهيبة من هول المعاملة غير الإنسانية التــي تلقيتهــا..." .. فيمــا بــدت العمليــات الاستشهادية وكأنها ظاهرة أفرزتها ثقافة جديدة "ثقافة الاستشهاد"، تعتمد على مرتكزات دينية، نفسية، اجتماعية.. ولن نقول "سياسية". المطلع على آخــر مقولات المستشهد يتأكد أن البعد الديني/ النفسي/ الاجتماعي، هــو الأغلــب والدافع لأن يتخلى المرء عن حياة، بنما جبلت النفس البــشرية علــى حــب الحياة. ومن قال أن الاستشهاد "ممات"، إنها حياة أخــرى، هــذا مــا ردده المستشهدون في آخر ما سجلتها أقلامهم.

- في 25-11-1987م استقل "أبو رامي" الطائرة الشراعية (يبلغ من العمر 22 سنة)، نفذ عملية "قبية"، حيث ألقى ذخيرته، وسقط مع طائرته على قاعدة "جيبور" قرب مستعمرة "كريات شمونة" بــشمال إســرائيل، فكانــت بدايــة الانتفاضة الأولى.
- في 26-10-2000م اقترب أحدهم بدراجته، وفجر نفسه في أحد الجنــود الإسرائيليين في قطاع غزة.
- في 22-11-2000م في محطة الخضيرة (على بعد 45كم من تل أبيب)، فجر آخر نفسه فأصاب خمسة وأربعين إسرائيليا.
- في 3-3-2001م فجر ثالث نفسه، في سوق "نتانيا" فقتل ثلاثة إسرائيليين.
- في يوليو سنة 2001م، نفذ "نافذ النذر" عمليته الاستشهادية، قرب إحــدى نقاط التفتيش للجيش الإسرائيلي، تلك النقاط التي تحمــل دلالــة الاحــتلال والقهر.

لسنا بصدد حصر تلك العمليات، نحرص أكثر على ما خطه قلمهم قبل الاستشهاد، إما شعرا أو وصية أو خاطرة بمعنى ما. فقط نشير إلى المقاتل الذي تهدم منزله بواسطة القوات الإسرائيلية، في 10-7-2001م وقبل زفافه فورا..حرص العروسان على إتمام زفافهما بعد ثلاثة أيام في خيمة (واستمرت الحياة)، (نشرت في جريدة الأهرام 15-7-2001م).

مقولات الشهداء:.. كتب الشهيد "جمال عبد الغني ناصر" قبل أن يستقل سيارته المفخخة، وقد توضأ، مستهدفا حاملة جنود إسرائيلية، يقول لزملائه من طلاب جامعة النجاح:"التفوا حول خيار المقاومة، ولتعلوا راية الجهاد".ثم وقع اسمه تحت لقب "الشهيد الحي"... كتب الشهيد "محمود أحمد مرمش"، ثم توضأ وأدى صلاة الفجر، واشترى علبة حلوى لأمه ، يقول:"إن الحياة بجوار رب العزة، لهي أفضل حياة، وخير من أي حياة. والله إنها لبئس حياة يتحكم بها الطغاة والمستكبرون، والله إنها الشهادة لا تنتهي في ساعة ولا تنتهي في ليلة".نفذ عمليته في ذكرى النكبة 15-5-2001م.

أما أحدهم فقد كتب شعرا يقول:

"سأحمل روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى

فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدا"

هذه نماذج مما كتب، وإن دلت على شئ، فلا تدل إلا على الرغبة في الخلاص من أجل الجماعة، وأن البقاء بجوار رب العزة أفضل.

أما مقولات الجنود الإسرائيليين حول ما فعلوه عند "الحواجز" ينـدى لـه الجبين، فقد كانت الانتفاضة صدا طبيعيا لشناعة ما أحدثه الجنود أمام كل الحواجز التي انتشرت على الأرض الفلسطينية.

يقول الجندي "ليران رون فورير" في مذكراته (التي نشرت بصعوبة):" إننا كسرنا أيادي شباب فلسطينيين في قطاع غزة، لأنهم رفضوا إغلاق الراديو، فقط لا غير"!!وعن سرقة مسابح الشيوخ الفلسطينيين قال:"حين يرفض رجل

ما إعطاء المسبحة لأي جندي يطلبها، فإنهم – كما فعل الجنـديان "ميـرو" و"بوعاز" – يقومون بكسر يديه"!!كما يقول كاتب المذكرات "الجندي ليـران" عن نفسه:"لقد أطلقت النار على شخص ما هذا اليوم، إنهم زجوا بـي فـي إحدى المناطق المضطربة في قطاع غزة، شاهدت رجلا بين الأطفال الـذين يرشقون الحجارة، صوبت سلاحي نحو بطن ذلك العربي، وأطلقـت عيـارا ناريا واحدا، أصاب الهدف بدقة. زملائي الجنود ربتوا على كتفـي وقـالوا: "أنت رجل فعلا، كل الاحترام والتقدير لك. إطلاق النار على شخص ما هو الشئ الحقيقي الذي يجب أن أقوم به، لقد شعرت بالفخر"!!ويقول:
"لقد كنا نضرب العرب، دون سبب، سوى الملل من الوقوف الطويل علـى الحاجز"..‏"كنا نرمي هويتهم ليقوموا بالتقاطها عن بعد، دون سبب أيضا سوى التسلية"..‏"كنا نجبر بعضهم على إلقاء النشيد الـوطني الإسـرائيلي، ونقـوم بتلقينهم ما يجب أن يقولوا"..

تكثر الحكايات والأحداث حول الحواجز وعنها، موت المرضـى داخـل سيارات الإسعاف، السيدة الحامل التي تلد من جراء طول مدة الانتظار مـع الاستفزازات، سقوط البعض مغشيا عليه أو مصابا بضربة شمس.مع ذلك لا يخلو الأمر من التحدي، مع طرافة ما حدث.. فقد قـرر العـريس "شـكري عودة" أن يعقد قرانه عند الحاجز، على مرأى من الجنود (وقد منعـوه مـن الوصول إلى نابلس أو عبور الحاجز).. هكـذا انتـصرت الحيـاة، ونجـح التحدي!!

قدمت الانتفاضة الأسرى الصامدين، ومنهم الـسيدات المناضـلات فعـلا وعملا وقولا..وفكرة "الاستشهاد"، التي يمكن تمييزها عن "الانتحار اليابـاني القائم على فكرة "المقاومة السلبية"، وتميز الأفكار الفلسطينية فـي مقاومـة المحتل عما سواها عند آخرين من مظاهر الرفض الـسلبي الـذي ينتهـي بالانتحار لأسباب سياسية أو اجتماعية وكما عبرت الانتفاضة عن نفسها أمام

الحواجز بمشاهد قد لا يصدقها البعض . نعم..لقد قدمت الانتفاضـــة الكثيـــر لأقلام الكتاب والمبدعين: فكانت الرواية الأولى لسياسي معـــروف (عـــضو كنيست إسرائيل) "عزمي بشارة"..وقيمة هذا العمل الروائي، أبعد كثيرا مـــن قيمتها الفنية (وهى أيضا ذات قيمة أدبية وفنية).

هناك جيل حضر الانتفاضة الأولى يحبو، وحضر الثانية، وقد شب عـــن الطوق..فكانت تجربته الجوهرية في إبداعاته. لعل أكثرهم لم ينشر قصـــصه في كتاب، ربما تتكاثر في المواقع الأدبية على شبكة الانترنت... هناك جيل راسخ الآن، كتب أعمالا ناضجة باقية، لن تنساها ذاكـــرة الأمـــة... زودت الانتفاضة المبدع الفلسطيني بتجارب "الأسر والاعتقال، خصوصية تجربـــة الاستشهاد.. ثم ربما زودته بتجربة –ربما– تبدو نـــادرة، ألا وهـــى الحيـــاة والموت عند الحواجز(من روايات التجربة الأخيرة: "المعبر/زياد عبد الفتاح"، و"الحاجز/عزمي بشارة"..وأيضا رواية "الحصار/ رفيق محمود"، وغيرها مع العديد من الروايات والقصص القصيرة... كثرت الأعمال التي غاصت فـــي تفاصيل الحياة اليومية في المخيمات، تلك التي رفـــضها الـــبعض، وفـــضل تسميتها بالمعسكر، ربما لقسوة دلالة "المخيمات"..يقول "غريب عسقلاني" في إحدى رواياته: "..في بيوت المخيم المتراصة كعلب الكبريت غيّب الآدميون في جوفها حتى الانتفاخ، فيما راحت رياح تشرين تصفر بين جدران الأزقة الضيقة، تتلوى أصواتا شيطانية حول السقوف الواطئة..."

أضافت الانتفاضة شكلا إبداعيا لم تعرفه النثرية الفلسطينية من قبل..وهـــو المزج بين الشعر والنثر (على كافة معطياته مـــن خـــواطر، قـــص، حكـــم وأمثال..الخ)... تلاحظ مشاركة الشعراء للروائيين في إنتاج جنس الروايـــة، على الرغم من أن القارىء يعرفهم كشعراء (سميح القاسم/إلى الجحيم أيهـــا الليلك – أدمون شحادة/ الطريق إلى بيرزيت– زكريا محمد/العين المعتمة)، ربما لخصوصية الرواية وخصائص الحكي والقص، مع الرغبة في البوح.

الأعمال التي رصدت المقاومة قبل اتفاقية "أوسلو"، غلبها التلميح، والبعد عن التصريح المباشر، مع إبراز قضية "الترانسفير". وإن عبر البعض عن عـدم سعادته باتفاقية "أوسلو"..كما في رواية "مقامات العشاق والتجار/ أحمد رفيق عوض" حيث قال بطل الرواية، على الرغم من أنه خرج من المعتقل، بـات يعمل في غرفة قريبة من الغرفة التي تعذب فيها، لذا لا يشعر بالسعادة.

الأعمال التي كتبها روائيو عرب إسرائيل، بقيت (قبل الانتفاضة وبعـدها) أقرب للرمز والتلميح (ربما باستثناء رواية الحاجز/عزمي بشارة).

لا يخلو الإبداع الروائي والقصصي الفلسطيني من مناقشة الحيـاة اليوميـة والموضوعات الاجتماعية، وإن بدت قليلة. مثل رواية "التائهـة " للروائـي "عون الله أبوصفية".. التي تناقش موضوع "الغيرة" بين الـزوج وزوجتـه.. فالغيرة من الزوجة التي زادت بسبب عدم الإنجاب، والكل يقول:" رجب ولا كل الرجاله، إنه قادر على الإنجاب من أي امرأة أخرى، ليكون له خلـف".. فلما تشاجرت الزوجة (عواطف) مع أمه هددها بالزواج من أخرى، فقطعت ذكره. طلقها رجب وترك القرية، وعمل عند فكهاني، زوجته تغويه، فتـرك العمل. وعندما تقابل مع الأرملة "نجلاء" التي أحبته وطلبت الـزواج منـه، أخبرها بالسر.. ورفض عطفها عليه. إلا أن الطبيب نجح في علاجه.. وعاد إلى القرية، ليدافع عن حبه القديم أمام القاضي (إن مديحة كانت تدافع عـن حبها بطريقتها).. وبعد سنوات قليلة يفرج عـن الزوجـة لحـسن سـلوكها ويتزوجها "رجب".

.. كما أن رواية السيرة الذاتية راجت، وبدت أقرب إلى بعض الأقلام. ربما لقربها من المزج المرغوب بين التجربة الخاصة والحكي القصصي.. منهـا "حصرم الجنة/ عاطف أبو سيف"و رواية "زمن اللعنة/ أحمد عمر شاهين".

نجحت الانتفاضة في غزو اللغة المجرية، بعد أن كتب بها واحد من روائيي فلسطين " "حجارة الألم" التي قدم لها الأديب (رئيس الدولة السابق للمجـر)

معربا عن دهشته من قسوة ما قرأه.. وكما كل إبــداع المقاومـــة، أفـــرزت الانتفاضة الرواية التي تجعل من "الأرض" رمزا وموضوعا..كما في رواية "خندق المصير/ حسين المناصرة". فالكنز في الأرض أمل ومطمع ومحــل صراع بين الجميع، وقد جعل من المثل الشعبي "بين حانا ومانـــا ضـــاعت لحانا"..حتى أنه خاطب العرب (في كل العالم) يقول:

"يا عالم يا هو: من نحن؟ ثلاثمائة مليون، عام ألفين، ولا يهشون وتنـــشون أمام عشرة ملايين يهودي..متى نصير أسياد أنفسنا؟" !!

إجمالا يمكن الإشارة إلى أن الروايات والقصص التي تناولت "الانتفاضـــة الأولى" بدت فيها معالم الفعل النضالي خفيا بين الأحداث، وفي خلفية المشاهد التي يرصدها الراوي، وبين طيات الأحاديث الحوارية..على العكـــس مـــن الروايات التي عالجت الانتفاضة الثانية. فقد كتبت تلك الأعمال ونشرت تحت ظل السلطة الإسرائيلية، على العكس من تلك التي كتبت تحت ظل الـــسلطة الفلسطينية ــ حيث استلمت السلطة الفلسطينية مقاليد الأمور بعـــد معاهـــدة أوسلو.

المراجع

أولا: الدراسات والبحوث..

- ببليوجرافي الرواية العربية- الجامعة الأمريكية بالقاهرة-عام 1999م تحت إشراف د.حمدي السكوت.
- مصادر الأدب الفلسطيني الحديث- د.محمد عبد الله الجعيـدي – سلسلة "كتاب الرياض" عام 2001م.
- تكنولوجيا السلوك الإنساني- ب.ف.سكينر- ترجمة"وجيه سمعان"- سلسلة1000كتاب ــ القاهرة عام 1997م.
- الاتجاه القومي في الرواية- د.مصطفي عبد الغني – سلسلة "عالم المعرفة" رقم188، عام 1994م.
- من الغيم إلى المطر – د.مصطفي عبد الغنـي – مكتبـة الأسـرة عـام 2004م.
- الذات والمهماز – د.محمد نجيب التلاوي –سلسلة "دراسات أدبية" –هيئة الكتاب المصرية عام 1998م.
- الخطاب الروائي عند غسان كنفاني – منار حسن فتح البـاب – سلسلة "دراسات نقدية"–هيئة قصور الثقافة عام 2003م.
- الشخصية الإسرائيلية – د.محمد خليفة حسن "رسالة سلسلة المعرفة"- مركز تنمية البحوث – جامعة القاهرة عام 1997م.
- آفاق الإبداع ومرجعيته في عصر المعلوماتيـة – د.حسام الخطيـب و د.رمضان بسطويسي – دار الفكر المعاصر –بيروت عام 2001م.
- أدب المقاومة- عباس خضر- دار الكتاب العربي–بالقاهرة –1973م.
- سيكولوجية العدوان- خليل قطب أبوقورة–هيئة قصور الثقافة بالقـاهرة- عام 1995م.

- فقه السنة(الجزء الثالث)- السيد سابق- دار الريان بالقاهرة- عام 1977م.
- سيكولوجية التطرف والإرهاب- عزت سيد إسماعيل- حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت- عام 1994م.
- الحرب:الفكرة-التجربة-الإبداع. السيد نجم- هيئة الكتاب المصرية - عام1995م.
- المقاومة والأدب- السيد نجم- هيئة قصور الثقافة -عام2001م.
- المقاومة والحرب في الرواية العربية - السيد نجم - سلسلة "كتاب الجمهورية" عام2005م.
- المقاومة في الأدب العربي- السيد نجم- هيئة قصور الثقافة (تحت الطبع).
- عدد من الدوريات الأدبية(مجلة فصول بالقاهرة- مجلة الإنسان والتطور بالقاهرة- مجلة عالم المعرفة بالكويت - مجلة التربية المعاصرة بالقاهرة).
-عدد من المطالعات والقراءات على شبكة الانترنت.

ثانيا: الإبداعات القصصية والروائية محل الدراسة:

الإصدارات:

مجموعة قصص "السفر"- دار الثقافة الجديدة 1984م.
مجموعة قصص "أوراق مقاتل قديم"- هيئة الكتاب 1988م.
رواية "أيام يوسف المنسي"- نصوص 90 عام 1990م.
مجموعة قصص "المصيدة"- هيئة الكتاب 1992م.
مجموعة قصص"لحظات في زمن التيه"- هيئة قصور الثقافة1993م.
رواية "السمان يهاجر شرقا" - هيئة الكتاب 1995م.
كتاب "الحرب:الفكرة-التجربة-الإبداع"-هيئة الكتاب 1995م.

مجموعة قصص" عودة العجوز إلى البحر" – دار الوفاء 2000م.

رواية "العتبات الضيقة" – هيئة الكتاب 2001م.

كتاب "المقاومة والأدب" – هيئة قصور الثقافة2001م.

كتاب "طفل القرن الحادي والعشرين" – دار الوفاء2003م.

كتاب "المقاومة والحرب في الرواية العربية" – كتاب الجمهورية 2005م.

إصدارات في أدب الطفل:

- قصص "سامح يرسم الهواء" – دار المعارف
- قصص "الأسد هس والفيل بص"– دار المعارف
- قصص "حكايات القمر"– دار الهلال
- قصص "المباراة المثيرة"– دار المعارف
- "الأمومة في عالم الحيوان" – دار المعارف
- رواية"الأشبال على أرض الأبطال"–كتاب قطر الندى–هيئة قصور الثقافه
- قصص"روبوت سعيد جدا"– دار الهلال

النشاط الأدبي:

- عضو اتحاد الكتاب المصريين.
- عضو نادي القصة بالقاهرة.
- عضو مؤسس لاتحاد كتاب الانترنت العرب (أمين سر الاتحاد)
- حصل على العديد من الجوائز وشهادات التقدير، منها: جائزة سوزان مبارك في أدب الطفل– المجلس الأعلى للثقافة في الدراسات النقدية – ومسابقة أخبار اليوم في الرواية العربية– مسابقة القصة والحرب التي نظمتها القوات المسلحة المصرية – ومسابقة القصة في نوادي الأدب والقصة في مصر والعالم العربي.

- شهادة تكريم بالمؤتمر الأدبي الأول لأدباء القاهرة.
- حضور العديد من المؤتمرات الأدبية، والاشتراك في العديد من بـــرامج الإذاعة والتليفزيون بمصر.
- قررت وزارة التربية والتعليم اقتناء رواية "الأشبال على أرض الأبطال"- طفل.

النشر المشترك:

- (5) أعداد خاصة عن القصة في أدب الحرب – هيئة الكتاب 1995م.
- (5) كتاب المقهى الثقافي الأول "معرض القاهرة الدولي" – هيئة الكتاب 1997م.
- (5) قصص متنوعة لأجيال مختلفة "كتاب الجمهورية " عن دار التحرير 2000م.

رسائل جامعية:

- رواية "أيام يوسف المنسي ضمن مضمون رســالة الــدكتوراه للــدكتور مصطفي الضبع..جامعة عين شمس.
- رواية "السمان يهاجر شرقا" و "الحرب:الفكرة –التجربة–الإبداع" ضـــمن مضمون رسالة الدكتوراه للدكتور عبد المنعم أبو زيد..جامعة القاهرة.
- رواية "السمان يهاجر شرقا"، و"الحرب:الفكرة–التجربة–الإبداع" ضـــمن رسالة الدكتوراه للدكتورة غادة عفيفي..جامعة عين شمس.

تحت الطبع:

- رواية " الروح وما شجاها".. اتحاد كتاب مصر.
- دراسة " المقاومة في الأدب العربي".. اتحاد الكتاب العرب.
- دراسة " أدب المقاومة"..هيئة قصور الثقافة.

- مجموعة قصص (غرفة ضيقة بلا جدران)..نادي القـصة بالقاهرة.
- "لغز الكائنات الفريدة" – أطفال – دار المعارف.
- مجموعة قصص طفل "حكايات الولد"..سلسلة قطر الندى.

التأليف في مجال الدراما:

– تمثيلية "نور الظلام" شبكة إذاعة البرنامج الثقافي عام2002 م.

– تمثيلية عـن قـصة قـصيرة بمجموعـة"أوراق مقاتـل قـديم" بإذاعـة الإسكندرية.عام2002م.

– مسلسل "ساعة الصفر" شبكة إذاعة البرنامج الثقافي عام2003م.

سـيرة الكاتب

تخرج؛ في كلية الطب البيطري – جامعة القاهرة وكليـة الآداب (قـسم الفلسفة) – جامعة عين شمس.

العنوان البريدي: 21 شارع عوض فهمي– سراي القبة رقـم بريـدي: 11331القاهرة – جمهورية مصر العربية

بريد اليكتروني:ab_negm@yahoo.com

الفهـــــــرس

صدر عن اتحاد الكتاب الفلسطينيين :

1.	رفيق السالمي يسقي ..	شعر	محمود الغرباوي
2.	مراسم حلول الروح	شعر	د . عاطف أبو حمادة
3.	لافتات القدس	شعر	عبد الله حسين
4.	نوافذ	شعر	صباح القلازين
5.	رحيل مفاجئ	شعر	مروان برزق
6.	مفردات فلسطينية	شعر	صالح فروانة
7.	النورس	شعر	مصطفي الأغا
8.	عناق الوردة	شعر	عائدة حسنين
9.	حكاية من الشارع الخلفي	شعر	علاء الغول
10.	سجون من البحر	رواية	محمود الزعيم
11.	الجرح	رواية	محمد نصار
12.	قمر في بيت دراس	رواية	عبد الله تايه
13.	زمن دحموس الأغبر	رواية	غريب عسقلاني
14.	بكاء العزيزة	رواية	د . علي عودة
15.	كرة الثلج	رواية	عاطف أبو سيف
16.	حفريات على جدار القلب	رواية	حبيب هنا
17.	صفحات من تاريخ أبا ..	رواية	زيد أبو العلا
18.	سيرة الزنزلخت	رواية	خليل حسونة
19.	عين اسفينه	رواية	خضر محجز
20.	نثار الروح والجسد	قصص	رجب أبو سرية
21.	بحر رمادي غويط	قصص	زكي العيلة
22.	أحلام الزيتون	قصص	مجموعة مشتركة
23.	قصص من فلسطين	قصص مترجمة	د . سعيد عبد الواحد
24.	شهورش	مسرحية	محمد حسيب القاضي
25.	الكونتيسة	مسرحية	سليم عيشان
26.	دراسات في النقد الأدبي	دراسات	د . حماد أبو شاويش
27.	في نقد الأدب الفلسطيني	دراسات	د . نبيل أبو علي
28.	انعكاس الإرهاب الصهيوني	دراسة	ناهض زقوت
29.	عناصر الإبداع الفني	دراسة	د. نبيل أبو علي

صدر عن سلسلة أدب الانتفاضة :

.1	مكان	قصص	حماد صبح
.2	مرثية الشرف العربي	شعر	عمر خليل عمر
.3	للقدس تجلياتها	نصوص	خليل حسونة
.4	فجر آت	مسرحية	عون الله أبو صفية
.5	تداعيات الخارجي الأخير	شعر	توفيق الحاج
.6	الغروب المشرق	قصص	عثمان أبو جحجوح
.7	البالوع	نصوص	أحمد يعقوب

وصدر عن سلسلة إبداعات فلسطينية بالتعاون مع اتحاد الكتاب الفلسطينيين :

.1	قصص فلسطينية	قصص	مجموعة مشتركة
.2	في المحطة	قصص	عبد الوهاب أبو هاشم
.3	اقتلاع	قصص	بشرى أبو شرار
.4	قمر سجين وجدران أربعة	رواية	معاذ الحنفي
.5	البحر .. حوار امرأة	شعر	عبد الله حسين كراز
.6	من وحي الانتفاضة	مقالات	محمد نصار
.7	حديث الوجدان	شعر	فرج البرعي
.8	وجهان	شعر	رزق البياري
.9	لمن يهمه الأمر	قصص	عبد الوهاب أبو هاشم
.10	ذات: الرؤية والتشكيل	دراسة	ناهض زقوت
.11	طرقات على جدار الصمت	شعر	محمد مهدي
.12	أنياب الصل	رواية	خليل حسونة
.13	خصائص الأسلوب في شعر فدوى طوقان	دراسة	فتحية صرصور
.14	عواصم في الظل .. وأنا	شعر	سائد السويركي
.15	حكاوي المساطب	شعر	سعيد أبو طبنجة
.16	صفحات من سيرة المبروكة	رواية	محمد نصار